رواية

أركان

تأليف:

محمود جاويش

Odabaa
OD
2000
للنشر و التوزيع

رواية / أركان

تأليف / محمود جاويش

الناشر / أدباء 2000

الطبعة الأولى / 2020

رقم الإيداع /2020/2691

الترقيم الدولي / 978-977-6721-07-4

تدقيق لغوي / خلود أحمد شكر

غلاف / أسامه أمين

تنسيق وإخراج / مدحت رأفت

حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار أدباء 2000 للنشر والتوزيع-2020

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه أو اختصاره بقصد الطباعة واختزان مادته العلمية أو نقله بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من الناشر مقدما .

كل ما نُشر في هذا العمل مسؤلية المؤلف، ودار النشر غير مسؤله عن ما ورد في هذا العمل

دار أدباء 2000 للنشر والتوزيع

نشر – توزيع

01020812429 – 01099654718

العنوان: ش وهبه- فيصل – الجيزة

إهداء إلى

أمِّي، أختي، وأصدقائي.

في مكانٍ ما، وزمانٍ ما في الغرب الأمريكيِّ القديم...

أو على الأقلِّ، شريحةٌ مِنَ الكتلة القديمة...

الفصل الأول

نبوءة

«انظروا إليه!... لماذا يركض بتلك الطَّريقة يا ترى؟»

كان يركض بأقصى سرعةٍ بين جموع النَّاس في المدينة، وبينما كان ينهي بذراعه يمينًا ويسارًا ليزيح طريقه، كان يمسح دموعه بيده الأخرى.

«إنَّه الفتى ابن الوحش!... انظروا كيف هو قبيحٌ!...»

ومع كلِّ كلمةٍ كانت تخرج مِنْ أفواه النَّاس في الطَّريق، كانت تزداد السُّرعة، سرعة الرَّكض هربًا، وسرعة ذرف الدُّموع مِنْ عينيه، لقد كان يهرب مِنَ البأس، والضِّيق، والخوف، معرضًا نفسه لأسوء عقوبةٍ قد يتعرض لها امرُؤٌ على طول الطَّريق، أَنْ تُلقى عليه الكلمات كالسَّكاكين، فليتهم يرمونه بالكمات، عوضًا عن النَّقش على مشاعره بذات العنف.

«هل يهرب مِنَ المدينة حقًا؟!... حمداً لله!...»

توقَّف فجأةً، عندما صادف فتاةً صغيرةٍ،كانت تمرُّ إلى الإتِّجاة الآخر مِنَ الطَّريق، وتوقَّفت مرتبكةً بين الرُّجوع، والاستمرار، والخوف مِنَ الاصطدام في المنتصف عندما رأته يتقدَّم بسرعةٍ كبيرةٍ، وقف أمامها، ونظر إليها بارتباكٍ هو الآخر، وبعد لحظاتٍ ابتسم مِنْ خلف الدَّموع ابتسامةً خفيفةً، وكان مغزاها بألَّا تشعر بالخوف منه أبدًا، ولكن سرعان ما قدِّمت أمها، وحملتها خوفًا عليها مِنْ أَنْ تتعرض لخطرٍ محدقٍ ينظر إليها بابتسامةٍ شرسةٍ كما صنفتها هي، قالت مبتعدةً:

– لا تؤذها أيُّها الوحش!

وعندها قرَّر الرَّكض مرَّةً أخرى.

وصل إلى بيت (الشريف) القديم، دخل إلى المنزل مسرعًا، ومع الوقت آذن له مَنْ في البيت بالدُّخول إليه خوفًا، وخشيةً مِنْ أَنْ يدمره عَنْ بكرة أبيه، وبعد أَنْ تقابلا، قال (الشريف):

– أهلًا بك هنا، اجلس مِنْ فضلك.

فقال الفتى بغضبٍ يسترُ هشاشةً نفسيَّةً بالغةً:

– أرجوكَ، لقد نُبذت مِنْ كلِّ مكانٍ، أرجوكَ، دعني أعيش هنا، أنا لست هذا الوحش الَّذي رحل عن هنا، أرجوك أعدني.

فأنزل (الشريف) رأسه لأسفل، وتحرَّك مِنْ موضعه باتِّجاه مكتبته الفاخرة، ومنها أخرج كتابًا بعنوان: (الجريمة والعقاب)، وبعد أَنْ جلس على كرسيِّ القراءة الخاصِّ به، قال عندما أدرك أَنْ كلَّ ذلك كان تحت متابعة أعين الفتى الآملة:

– ليس هناك شيءٌ لأفعله لك، إنَّ القرار من العمدة، وليس مني.

فتلاشى غضب الفتى، وانكسرت شوكته، فقال بعدما وسعت عيناه تفاجأً، بعد أَنْ أدرك ألَّا مكان له بعد الآن:

– ماذا أفعل؟!

– خذ زادًا واهرب، إنَّ النَّبذ قد قُرِرَ سلفًا، وإنَّما الإجراء الحاليُّ بمثابة إعلانٍ له.

خذ زادًا واهرب...

خذ زادًا واهرب...

خذ زادًا واهرب...

استيقظ مفزوعًا مِنْ ذلك الكابوس الّذي يراوده يوميًا، وكالعادة هم بالتَّخطّي سريعًا مِنْ على سريره، نظر إلى تفاصيل بيته الصَّغير أرقًا، والّذي لَمْ يكن بيتًا كما تعنيه الكلمة مِنْ تفصيلٍ، وإنَّما كان كوخًا في أعلى الجبل...كان يحوي سريرًا طويلًا في الجزء الغربيِّ مِنَ الغرفة، وإنْ كان النَّظر مِنَ الأعلى هو المنظور المناسب، وفي المنتصف كانت هناك طاولةٌ مستديرةٌ صغيرةٌ موضوعٌ عليها زجاجة ماءٍ ومصباح غازٍ، وحول الطَّاولة كرسيان مِنَ الخشب الخالص، وفي الشَّمال دولابٌ صغيرٌ، لا يحتوي إلَّا على قميصٍ وبنطالٍ غير الّذي يلبسهما، وبجانبهما مسدَّسه، وبندقيةٌ كبيرةٌ قديمة الطِّراز، والجنوب، والشَّرق كانا فارغين، مظلمين مثل الهالة تحت عينيه، عوضًا عن وجود الباب في الشَّرق، ونافذةٍ في الغرب.

وبعد النَّظر إلى التَّفاصيل، ولعنها اعتاد أيضًا الخروج مِنْ بيته الخشبيِّ الصَّغير عند أولى لحظات الصَّباح، يضع الطَّعام لغزلانه، ويتابع عمليَّة نموِّ النَّباتات في المزرعة الصَّغيرة، يقطف النَّاضج منها ويقتلع التَّالف، وبعد تخزين الخضراوات، والفاكهة يمضي ممتطيًا حصانه في جولةٍ حول الجبل الشَّاهق والّذي يقع في شمال مدينة (هوجو) المدينة الساحرة.

كان يعيش وحيدًا في أعلى الجبل، يمقت البشر، والتَّعامل معهم، ولكنَّه كان مجبرًا على الذَّهاب إلى الحانة الّتي تقع في أسفل الجبل مِنْ حينٍ إلى آخر، حتَّى لا تقتله الذِّكريات، أو يفقد القدرة على الكلام.

ربط حصانه بجوار الحانة، وسط عددٍ كبيرٍ مِنَ الأحصنة، مسح قبَّعته وهندمها فوق رأسه واطمأنَّ على وجود مسدَّسه في جيبه، وشرع في الدُّخول.

كانت حانةٌ قديمةً، بضع طاولاتٍ مستديرةٍ، وموزعةٍ في جميع الأنحاء، يجلس على كلِّ واحدةٍ منها عددٌ مِنَ الرِّجال، والَّذين اعتادوا الجلوس والشُّرب حتَّى الثَّمالة، ومِنْ ثَمَّ الحديث عَنْ الآخرين، وأمورهم، ومشاكلهم، وفي الحقيقة، كان هذا ما يتودَّد لسماعه، أمور مدينة (هوجو).

لَمْ يكن لدخوله أيَّةُ هيبةٍ، ولَمْ تتبَّعه النَّظرات لدى جلوسه على إحدى الطَّاولات، وهذا بالطَّبع ما كان يتمنَّى، أَنْ يبتعد النَّاس عنه، أَنْ لا يَضُرَّ، أو يُضَرَّ، ألَّا يكون ذكرى في حياة أحدهم، فكان دائم الاقتناع بأَنَّ التَّعامل مع النَّاس لا حدود له، ولا رقابة، وأَنَّ الرِّقابة الوحيدة هي الضَّمير، والَّذي مع الوقت يمكن أَنْ ينام، وأحيانًا يموت، وهذا ليس شيئًا سهل المراس كما يظنُّ في نفسه.

أشار إلى العامل، والَّذي سريعًا ما أحضر له المشروب، فلم يباشره الرَّجل بابتسامةٍ حتَّى، بالرَّغم مِنْ أَنَّ العامل قد بادره بواحدةٍ، ولكنَّه، كما قلنا، لا يرغب.

أخذ يرتشف برفقٍ وبتأنٍ، وكأنَّه كان يتحسَّس معنى الرَّوِيَّ، يفهمه، ويملي جسده به، وفي نفس الوقت، كان يتسَّمع كلام الرَّجلين الجالسين على الطَّاولة مِنْ جانبه.

– أتعلَم، لقد وصلت عِيرُ (جيكل بويز) إلى القرية فجر اليوم، وقد استقبلها العمدة بنفسه.

فردَّ الآخر بعد أَنْ أنهى شرابه:

– نعم، لقد علمت ذلك، ولكنَّني لَمْ أتوقَّع أَنْ يقوم (العمدة) بمقابلتهم بنفسه، في حين أَنَّ (الشريف) لا يرغب في ذلك.

فقال الأوَّل:

- على كلٍّ، إنَّ (الشريف) رجلٌ شريف، لا يهوى اللَّغو، كما يستطيع رؤية الخبث في عيون البشر، وأفعالهم، ولهذا هو يخشى على القرية مِنْ هؤلاء التُّجَّار الماكرين.

وتابع:

- نعلم جميعًا رغبتهم في الاستيلاء على كلِّ شيءٍ في المدينةِ، السُّوق، وعقول النَّاس، وتطلعاتهم لمستقبلٍ أفضل، أتَرى ما يأتون به مِنْ اختراعاتٍ، وأمورٍ لَمْ نعلم عنها مِنْ قبل، إنَّهم يملكون الجديد على العقول، والقوَّة تصبح مع الوقت شيئًا يسيرًا بيد محتكري المستقبل.

فقال الآخر:

- أنت تتحدث بعمقٍ كبيرٍ، مع مَنْ أتحدَّث يا تُرى؟ (الشريف)؟

قال الآخر متضايقًا، ومتأثرًا بالخمر:

- لِمَّ تتحدَّث معي بتلك اللَّهجة؟ أتراني طفلًا؟
- نعم، أراك طفلًا.

وبعد لحظاتٍ أخرج كلُّ واحدٍ منهما مسدَّسًا مِنْ جانبه، ونجح الأوَّل في قتل الثَّاني، تفاجأ المتجسس مِنْ سرعة الأمر، ومبادرته، ولكنَّه تعجب أكثر مِنْ عدم التفات النَّاس لما حدث، فكان الجميع منشغلًا بعالمه مع الآخرين، رغم أَنَّ صوت الطَّلقة كان مدويًا، ورغم صراخ الرَّجل أثناء إصابته، وضع القاتل ثمن شرابه على الطَّاولة، وأشار للعامل قائلًا:

- حاسبه على ما شرب.

– وغادر المكان مترنحًا

ذلك العالم الغريب ياصاحبي، وتلك المدينة الغريبة والمتوسِّطة لأربعة جبالٍ، مفصولةٌ عَنْ العالم، وتقدُّمه، وما فيه مِنْ تجديداتٍ يصلُّ لأهل القرية عَنْ طريق عِيرُ (جيكل بويز)، كما هي العادة مِنْ قديم الأزل، بالرَّغم مِنْ أَنَّ (جيكل بويز) حاولوا مرارًا، وتكرارًا السَّيطرة على المدينة، ولَكِنَّ (الشريف) القديم، والَّذي كان يدعى (ميليك) نجح في وضعهم عند حدِّهم، ولَكِنْ عندما توفَّاه الله عادوا إلى القرية، وفي ظلِّ ما رأوه مِن ْكرمٍ مبالغٍ فيه مِنْ خلال العمدة، ازداد طمعهم وجلى.

ذلك حديث طاولةٍ أخرى، ولَكِنَّهُ لَمْ يُظهر أيَّ رغبةٍ في إكمال التَّجسُّس، فقد شعر وأَنَّهُ سمع ما كَانَّ يريده، بل تأكَّدت كلُّ شكوكه مِنْ أَنَّ العالم هنا لَمْ يتغيَّر أبدًا.

أشار للعامل، وأعطاه في يده عملتين، وقال:

– الأخرى شراب هذا المقتول.

نظر إلى الجثَّة في حزنٍ، وغادر المكان في هدوءٍ. وعند بيته، أدخل حصانه في مربَّع السِّياج الخاص به، ذهب إلى خلف البيت، وأخرج مسدَّسه، وأخذ يطلق النَّار على دميةٍ بيضاء كبيرةٍ محشوةٍ بالحشائش، كانت معلقةً على إحدى الأشجار، أصاب منها الرَّأس، والقلب، والمعدة، وفي أثناء رميه، كان يظهر على وجهه الكره، والغضب، والمعاناة، وكأنَّه ينتقم مِنْ ذكرى مَّا. سقطت نقطة عرقٍ على الأرض مِنْ وجهه، وعندها أنزل مسدَّسه، وغادر باحة التَّدريب.

* * *

كَانَ حزينًا للغاية لتألُّم هذه الرُّوح، عندما اضطرَّ إلى كسر جميع أقدام الغزال الأضخم في مزرعته، وكَانَ يقول له أثناءَ تلك الفعلة:

– أنت تعلم لِمَّ أفعل ذلك، أرجوك اعذرني.

وبعد أَنْ أنهى كلَّ شيءٍ، ربط رأس الغزال بحبلٍ غليظٍ، وراح ممتطيًا حصانه، وممسكًا بمصباحٍ مُقادٍ يجرُّ الغزال على الأرض، وبالطَّبع، كان يزحف ببؤسٍ شديدٍ، فتارةً كَانَ يصطدم وجه الحيون في الصُّخور، وتارةً أخرى كان يستدير جسده مِنْ فرَّط قوَّة الشَّد، والَّتي لَمْ يكن يملك القدرة على كبحها. وبعد سيرٍ طويلٍ بين الجبل الأوَّل الَّذي يقع في الشَّمال، وإلى الجبل الثَّاني الَّذي يقع في الغرب، وصل الرَّجل جارًا لغزاله الميِّت تقريبًا إلى الوجهة المرادة.

وقف أمام البيت الخشبيِّ، المظلم، والمخيف، والَّذي تحيطه أشجار الخريف البائسة مِنْ كلِّ اتجاهٍ، وكَانَ يظهر مِنْ خلفهما القمر مكتملًا، كَانَ المشهد مرعبًا للغاية، فبيوت العرَّافين دائمًا ما تكون مخيفةً إلى حدّ كبيرٍ، ولكنَّهُ برغم ذلك المشهد المجنون، كَانَ ثابتًا عَنْ دون عادة البشر الَّذين يتردَّدون إلى ذلك المكان، وذلك لأنَّه لَمْ يكن مقتنعًا بأهمِّيَّة الأمر للحدِّ الَّذي يجعله يتحكَّم بمشاعره، وذلك نابعٌ مِنْ إدراكه بأَنَّ العرَّاف مجرَّد رجلٍ بشريٍ لن يؤذي شخصًا قويًا مثله، بالإضافة إلى أَنَّهُ قدَّم مِنْ لدُنه قربانًا عتيًا، وهو الأمر الَّذي يتغذَّى عليه أمثال العرَّافين، لتبتسم لهم الحياة، وليضمنوا قوت يومهم.

وقف أمام العمود الخشبيِّ الضَّخم، والطَّويل، والَّذي كَانَّ مرسومٌ عليه وشمٌ غريبٌ، يحوي دائرةً صغيرةً يخترقها سكينٌ، وهنا كان عليه إعدام الغزال كما هو متَّفقٌ عليه. إنَّ الأمر يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ عادات شعوب المناطق (الإسكندنافيَّة) القديمة في تقديم القرابين، عندما كانوا يقدِّمون البشر لذلك، ولكِنْ في (هوجو) كان الأمر هينًا، ولا يشترط تقديم قربانٍ بشريٍ، إلَّا إذا كان يحاول الشَّخص الهرب مِنَ الموت، أو المرض السَّحيق، ولكنَّ ذلك الرَّجل قويُّ البنيان، وطويل الجسد، كثيف الذَّقن، ذو الشَّعر الطَّويل، والنَّاعم، لَمْ يكن أبدًا معرضًا لذلك، أو حتَّى مقتنعًا بذلك، فأيُّ شيءٍ قد يعذِّب روحًا، أو يقتلها بغير حقٍّ، هو أمرٌ بغيضٌ، ومع هذا، وللأسف، روح التَّجربة وضيق المسعى ما كانا يحرِّكاه، فهو في أمسِّ الحاجة لمن يطمئنه، ويقول له أَنَّ انتظارك كلَّ تلك السَّنوات، أبدًا، لم يضيعِ سدىً، أو حتَّى يخبره، بأَنْ يغيِّر السَّبيل.

نحر الغزال، وبللَّ جسده بدمائه، وبعد أَنْ أنهى الطُّقوس، دخل إلى البيت المظلم، والَّذي كان مرعبًا للغاية، حيث ضوء القمر يتسلَّل مِنْ ثنايا ألواح الخشب المصنوع منها البيت، وبالطَّبع كان هذا هو مصدر الضَّوء الأوحد، وبالنِّسبة للأثاث، كانت هناك رؤوس قرابين بأنواعها معلَّقةً على الألواح، وأعمالٌ فخاريةٌ مملوءةٌ بالدَّم في كلِّ مكانٍ، كما كان هناك خطٌ مِنَ الدماء القديمة على الأرض يصل مِنَ الباب، وحتَّى الغرفة الوحيدة في البيت، سار على الخطوات حتَّى وصل إلى باب الغرفة، وهنا ظهر الصَّوت الخشن:

– ادخل.

فدخل بدون لحظة انتظارٍ، ومع دخوله وجد أريكةً خشبيةً موضوعٌ عليها جلود القرابين، وكان يجلس عليها رجلٌ عجوزٌ يخبيء وجهه برداءٍ أسود، جلس الرَّجل القرفصاء على الأرض مِنْ أمامه، وبعد دقائقٍ مِنَ الصَّمت الغير مبرَّرٍ، خرج الصَّوت الخشن:

– إنَّك رجلٌ ذو ماضٍ.

فتابعه الرَّجل بنظرة امتنانٍ ممزوجٍ معها التَّعجُّب، فسريعًا ما رفع العرَّاف يده مشيرًا بِلا، وعندها أنزل الرَّجل عينيه أرضًا، وبعد دقائق أخرى مِنَ الصمت:

– إنَّ قربانك مقبولٌ يا (أركان).

وتابع:

– ذلك الغزال... إنَّك تريد أَنْ تعرف مستقبلك، لك هذا يا ابن (بيلي ذا كيد).

صمت للحظاتٍ أخرى، وقال:

– ستكون نسرًا.

فقال (أركان) معترضًا:

– نسرًا؟

فأومأ الرَّجل برأسه بنعم، وقال:

– نعم... نسرًا.

تابع العرَّاف:

– غادر.

ومع أمره، وقف (أركان) في مكانه، وقال حائرًا:

- شكرًا لك.

غادر المكان... مبتهجًا، حزينًا، وحائرًا.

وفي اليوم التَّالي، وعندما أتى اللَّيل، أمسك بلحم الغزال الطَّازج، والَّذي كان قد ذبحه غدوةً خصيصًا لتلك المهمَّة الأخرى، امتطى حصانه وتوجَّه حاملًا اللَّحم في حقيبةٍ صغيرةٍ، ولَكِنْ في تلك المرَّة لَمْ يكن يُظهر وجهه، وإنَّما كان ملثمًا بوشاحٍ كبيرٍ يغطِّي وجهه ماعدا عينيه، وصل إلى أسفل الجبل، وتحرَّك في شوارع المدينة مختفيًا تمامًا، دون هوجٍ، وضجيجٍ، حتَّى وصل إلى بيتٍ كان معلقًا عليه لافتةٌ خضراء قديمةٌ، وكان مكتوبٌ عليها (روز للأعمال اليدويَّة)، فهبط أرضًا، ربط حصانه في عمودٍ خشبيٍّ بجانب البيت، وبعد لحظاتٍ مِنْ طرق الباب بهدوءٍ، ومع طرقه أتى الصَّوت مِنَ الدَّاخل، وكان صوتًا عجوزًا صادرًا مِنْ امراءةٍ طاعنةٍ في العمر، وبعد وهلةٍ فُتح الباب، قالت المرأة ناظرةً إلى اتِّجاهٍ مخالفٍ لاتِّجاه الرَّجل:

- مَنْ؟

- فتاكِ.

فابتسمت فرحةً، آملةً بقدومه، وقالت:

- تفضَّل، تفضَّل يا بُنيَّ.

فقال هو الآخر مبتسمًا بعد أَنْ وضع الحقيبة في يدها، لأنَّها وكما بدا أنَّها عمياء:

- لا عليكِ، تلك الحصَّة الأسبوعيَّة، آسفٌ على تأخُّري إلى هذا الوقت، ولكنكِ كما تعلمين الحال.

فقالت المرأة بعد أَنْ حاولت الوصول إلى كتفه، لتربت عليه برفقٍ ولينٍ:

– لا عليك يا بُنيَّ، يكفي جهودك لترعاني، وبالنِّسبة للوقت؛ فامرأةٌ عمياء مثلي لا تفرِّق بين الضَّوء، والظَّلام الَّذين تعتقدُهما، وإنَّما الظَّلام دائمٌ، والصَّباح فيك أنت، مِنْ بعد وفاة (سيليسيا).

فامتعض حزنًا مِنْ لينها، واعتقادها، فقالت:

– يا ولدي لا تحزن، سيأتي اليوم الَّذي تعود فيه إلى هنا، بينما يحملك النَّاس على أعناقهم، يغنون لك، ويتغنون بِك، لا تيأس يا بنيَّ.

فقال مبتسمًا:

– حسنًا... سأذهب الآن، اهتمي بنفسكِ، وصحَّتكِ رجاءً.

وغادر المكان عائدًا، مبتسمًا، وحزينًا.

وفي طريق العودة، وعندما وصل إلى منطقة (المزار) صادف عددًا مِنْ قطَّاع الطُّرق، والَّذين أشاروا له بالوقوف والنُّزول أرضًا، فلم يعبأ بإشاراتهم، فقال أحدهم محذرًا:

– إِنْ لَمْ تقف فسَّنقتل حصانك، قف وانزل إلينا يا هذا.

فلم يعبأ بتهديدهم، وعندما وجد أحدهم يقترب مِنْ مساره، أشهر مسدَّسه في الهواء، وقال بعد أَنْ لكز الحصان بحذاءه، فرفع قدماه عاليًا يصهل تصهيلَ:

– أتجرؤون على سرقة (أركان)؟

فسريعًا ما أشار قائدهم بالهروب خوفًا، وخشيةً مِنْ ذا الاسم الَّذي يقال، وبعدها أكمل الرَّجل سيره ممتعضًا مِنْ تلك الحقيقة الَّتي طالما أُثبتت أمامه اختلافَ قائلها، إِنْ كان شريرًا، بائسًا، عدوًا، وصديقًا.

* * *

الفصل الثاني
إشاعة

اشتدَّ عليه القلق، ذلك الفتى الصَّغير، حين كان يلعب مع أصدقائه في الحواري السُّفليَّة لمدينة (هوجو) السَّاحرة.

أخذ يركض هربًا بين البيوت الخشبيَّة ذات الطَّابق الواحد، والمدخل الخشبيِّ الطَّويل بعض الشَّيء، وكان ينظر خلفه معظم الوقت بينما كان يتحرَّك للأمام، فلم يلحظ ظهور أحد الفتية مِنَ الظَّلام، وعلى حين غِرَّةٍ، قام هذا الفتى بعرقلته، فوقع الصَّغير على الأرض يتأوَّه، قال الواقف للآخر السَّاقط أرضًا:

- هنا ينتهي كلُّ شيءٍ.

فصرخ الصَّغير قائلًا، والرُّعب جليٌّ في عينيه:

- الشريف ميليك!

فضحك الآخر، وقال:

- نعم... وها نحن ذا يا (بيلي)، أنا هنا لأنهي مسيرتك الإجراميَّة الطَّويلة، أنا هنا لأخلص البشريَّة جمعاء مِنْ بطشك، لينتصر الحقُّ ويندثر الباطل ولتنعم (هوجو) بالسَّلام.

أخرج الصَّبيُّ السَّاقط أرضًا مسدَّسه في عجالةٍ، ووجهه تجاه الفتى الَّذي كان يمثِّل دور (الشريف)، قال:

- أنا لا أموت يا ميليك!

وأخرج صوتًا مِنْ فمه يمثِّل طلقات النَّار مِنْ مسدَّسه الخشبيِّ، وفي سرعةِ البرقِ، قام وركض تجاه الظَّلام، بينما سقط الفتى (الشريف) أرضًا يتأوَّه، وبعد لحظاتٍ، أتى عددٌ مِنَ الفتيةِ، والَّذين كانوا يؤدُّون دور الشُّرطة، التفوا حول (الشريف) في قلقٍ، وقال أحدهم:

– أيها (الشريف)، هل أنت بخيرٍ؟

وقال آخر:

– ماذا حدث هنا؟

فقال (ميليك):

– أنا بخيرٍ، لقد هرب باتِّجاه الجبل.

فأخذوا ينظرون جميعًا باتِّجاه الجبل الشَّرقيِّ، وفي تلك اللَّحظة، اخترق صوت طلقات الفتى الصَّمت، وعندها ركض الأطفال تجاهه، وعلى بعد بيتين، وجدوا بيلي مُلقًى على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة، فالتفُّوا حوله، وقال بيلي عندما لاحظ وجودهم:

– لقد انتحرت.

فارق الحياة، وبعد ثوانٍ مِنَ التَّأثُّرِ، خرجت أصوات ضحكاتهم تحتلُّ الفضاء وصمته، وقال الَّذي كان يمثِّل دور الشريف القديم لـــــهوجو:

– لقد كنت بارعًا في اللَّعب يا ستيف.

فقال ستيف، والَّذي كان يمثِّل دور بيلي:

– وأنت أيضًا يا فرانك.

وبعد أَنْ أثنى كلٌّ واحدٍ منهم على الآخرِ، تمشوا تجاه أسفل الجبل الشَّرقيِّ، حيث اعتادوا الجلوس كلَّ أخرِ يومٍ، كما اعتاد كلُّ رجال هوجو السُّفليَّة، فتلك المنطقة بالذَّاتِ كانت معروفةً بأنَّها (المزار)، ولَمْ يكن هذا الأسم مجرَّد وصفٍ لمكانٍ رخيصِ الثَّمنِ، وإنَّما كان وصفًا للمكان الوحيدِ الَّذي كان يحقُّ لأُناس أسفل الهرم الطَّبقي لـــــــ(هوجو) زيارته، كانت

تبعد عَنْ آخر البيوت ببضعة أمتارٍ، وتعتبر الصَّخرة الأخيرة المرتفعة بعض الشَّيءِ عن الأرض، والَّتي تندرج مِنْ عدَّة صخورٍ يصغر حجمها كلَّما ابتعدت عَنِ الجبل.

قال (ستيف) بينما كان ينظر إلى النُّجوم:

– يقول جدِّي أَنَّ (بيلي ذا كيد) لم ينتحر حقًا.

فتفاجأ الصِّبيَّة مِنْ ذلك القول، فقال أحدهم مستاءً مِنْ تلك الإشاعة:

– هل تقصد أنَّه حيٌّ في مكانٍ ما؟ يا له مِنْ أمرٍ مرعبٍ.

وقال آخرٌ:

– إذًا مِنَ الممكن أَنْ يعود، وسيقتلنا جميعًا.

وبينما استمرَّ الاعتراض على ذلك القولِ، كان فرانك صامتًا، وذلك ما جعل ستيف يسأل:

– لِمَ أنت صامتٌ يا فرانك؟ ألست خائفًا مثل الجميع؟

فقال فرانك بصوتٍ خفيضٍ قادمٍ مِنْ ثباتٍ عظيمٍ:

– دائمًا ما يخبرني جدِّي بهذا أيضًا، ولكنَّني دائمًا ما أصدق الحديث الَّذي يخبروننا به في المدرسة بأَنَّ (بيلي ذا كيد) قد انتحر قد يكون ذلك كذبًا، وقد يكون الآخر كذبًا، ولهذا يعود الأمر لي في التَّصديق وبالطَّبع صدقت ما أجد فيه الأمان.

فقال ستيف متأثرًا بفضوله:

– أما أنا فمتأثرٌ بقول جدِّي، كما أنَّني أحلم بملاقاة (بيلي ذا كيد) هذا يقولون بأنَّه كان أقوى السَّفَّاحين هنا، كما أَنَّ (بيلي ذا كيد) هذا ليس اسمه الحقيقيَّ وأيضًا... ابنه.

وصمت عندما أتى لسانه عند الحقيقة الَّتي يمنع على الأفراد هنا قولها، أو حتَّى ذكر صاحبها، فقال فرانك مُكَملًا لحديث ستيف:

– أركان.

فنظروا إليه بتفاجيءٍ خائفٍ، وأخذ عددٌ منهم ينظرون حولهم خشيةً مِنْ أَنْ يكون قد سمعه أحد المارَّة، فتابع فرانك:

– تلك الحقيقة الوحيدة الَّتي أتَّفقُ مع جدِّي فيها، ولا أتَّفقُ مع أقوال المدرِّسين.

فقال ستيف بحسرةٍ:

– وأنا أيضًا.

وقال ثالثٌ:

– حسنًا لقد تأخَّر الوقت، لنذهب يا شباب.

فتحرَّك الجميع، ولَكِنْ قبل ذلك، باشر ستيف وفرانك بنظرةٍ، فبادله الآخر، وتلك النَّظرة كانت بمثابة مِيثاقٍ لشيءٍ ما.

* * *

البحث عَنِ المجهول دائمًا ما تكون الخطوة الأولى الَّتي تداعب العقل، وتزيِّن له أَنَّ ما هو موجودٌ غير كافٍ، وأَنَّ المنطق لَمْ يخلق إلَّا لنخوضه

ونتفوق عليه، هكذا تمَّ اكتشاف الحقائق منذ بدء الخليقة، وحتَّى يومنا هذا، وهكذا أيضًا لقيَّ الكثير حتفهم.

تقابلا عند المزار، بعد أَنْ قام كلٌّ واحدٍ منهما بتشديد ملبسه، وتغطية وجهه بالوشاح الموحَّد الَّذي وُزِّعَ عليهم في المدرسة عند انضمامهم، سلما على بعضهما البعض، ورفع (ستيف) مصباحه الموقد باتجاه الجبل الشَّماليِّ، وقال بينما كانت تلمَع عينيه شوقًا:

– من هنا سنبدأ البحث بيلي أو أركان.

فقال فرانك بعد أَنْ أخرج ورقةً صفراء قديمةً مِنْ جيب سترته:

– انظر هنا، تلك خريطة المدينة، لقد انتشلتها مِنَ البيت.

فنظر ستيف متحمسًا، وقال:

– حسنًا ما الخطَّة يا زعيم؟

– سنخرج مِنْ هنا، نصعد إلى الجبل ونهبط منه باتِّجاه الجبل الغربيِّ، ومنه إلى الجنوبيِّ، أي سنلتفُّ حول المدينة مِنْ خلال صعودنا ونزولنا حول الجبال أفهمت؟

فأومأ ستيف برأسه بنعم، قال متحمسًا، ومُولعًا:

– هيا بِنا! لنرى إِنْ كان بيلي هذا حيًّا أم ميِّتًا ولنقابل أركان ونعود شغفين بما رأيناه، نثبت كذب الكبار، ونكون أشهر اثنين في المدينة، أشهر مِنَ الشَّريف، وصديق... هيا بنا يا صديقي.

– هيا بنا!

أغلق فرانك الخارطة، ووضعها في جيبه، وتحركا مشيًا تجاه الجبل.*

* *

الفصل الثالث

صديق

أَنْ تكون صحفيًا هو أمرٌ صعبٌ، ولَكِنْ أَنْ تكون صحفيًا في مثل هذا العالم المنغلق على الظُّلم، والقهر، والجرح، والانشغال بالآخرين لهو أمرٌ أكثر هونًا، فالعقول في تلك المناطق غالبًا ما تتبَّعُ حميةً، قاسيةً ما ينطوي على أخبار المجرمين، والصِّراعات السَّاديَّة، والمازوخيَّة، وتلك العقيدة يتبعها (صديق) الرَّجل المنمق، الأصلع، ذو الأربعة عيون، قصير القامة ورفيعٌ حدَّ ظهور هيكله العظمي.

يُعَرَفُ (صديق) باهتمامه بالجرائم، وإعلان تفاصيل تفاصيلها، وهو الأمر الَّذي «منذ مدةٍ» جعله مِنْ أكثر الأقلام نجاحًا، وتطورًا، فكتب (صديقٌ) قديمًا عندما كان فتًى مغوارًا عَنْ أسطورة (بلي ذا كيد)، و(الشريف ميليك) كما أنَّه كان أوَّل، وآخرِ شخصٍ يجري محادثةً صغيرةً مع القاتل الأشهر حينها، قبل حادثة وفاته ببضعة أيَّامٍ.

ومِنْ هذا الوميض أصبح (صديق) ذو مكانةٍ عاليةٍ، وأصبحت كلماته تحمل القوَّة، والنُّور في العقول، كان يكتب عن (جيكل بويز)، وعن أحدث معدَّاتهم، والَّتي كان منها المصباح ذو البطاريات، والقداحة، وغيرها مِنَ الاختراعات المثيرة والبعيدة عَنِ العقل.

لَمْ يكن بالطَّبع مِنْ هواة الحديث عنهم، فلا يجرؤ على إغضاب (الشريف) الجديد، ولكنَّه كان يرى في الأمر وميضًا ما، أو سيلًا مِنَ الضَّوء يدلُّ على طريقٍ ما، وينتهي بأمرٍ كبيرٍ.

أنهى مقالته، وخرج مِنْ بيته متجهًا إلى مقرِّ لصَّحيفة، والَّتي وقف على بابها رجال الأمن عندما رأوه قادمًا احترامًا لقُدرته، ولهثًا خلف قطع النُّقود البائسة الَّتي تأتيهم شهريًا بسبب كلماته.

قال أحد الرِّجال:

– لقد أتى (صديق).

اتَّجه الآخر تجاه (صديق)، وعرض عليه حمل حقيبته، ولكِنَّ الأخير رفض تمامًا، قال مارًا مِنَ الباب:

– لا، يجب أَنْ أوصلها بنفسي.

صعد طابقًا، وولج إلى غرفة المدير، والَّذي راح يرفع مِنْ مكانته أكثر، وأكثر، قال (صديق):

– حسنًا، حديثك يصبني بالخجل سيِّدي.

فقال المدير:

– إنَّها ليست مجاملةً، إنَّه حقٌ يا بنيَّ، تفضل بالجلوس.

جلس (صديق) على الكرسيِّ، أفرغ ما في حقيبته الجلديَّة السَّوداء، وقال:

– هذه مقالةٌ عن (جيكل بويز)، أنت تعلم أنَّهم حديث السَّاعة، والبشر هنا سيهتمون بالأمر.

فقال المدير مترعجًا مِنْ تغيُّر مجال كتابته:

– وماذا عن اختفاء الطِّفلين منذ ليلة البارحة؟ أعتقد أنَّها حديث السَّاعة أيضًا.

فتنحنح (صديق)، وأسند ظهره على الكرسيِّ الوثير، وقال:

– لا أظنُّ ذلك، إنَّ الجريمة باتت شيئًا عاديًا هنا، بالنِّسبة لي، وبالنِّسبة للعقول، أعتقد أنَّهم الآن بحاجةٍ إلى لونٍ جديدٍ، وحديثٍ جديدٍ، وتجربةٍ جديدةٍ، ألا تراهم منبهرين بأشيائهم، ولغتهم،

وتعاملاتهم؟ انشر المقالة، إنَّها كلمةٌ جديدةٌ، وفي الكلمة الجديدة تثقيفٌ، وتوعيةٌ.

فابتسم المدير مِنْ ثقته في نفسه، وشعر بأَنَّ كلماته قد دغدغت أفكاره وأسعدتها، فقال مبتسمًا:

– يا لك مِنْ عبقريٍّ! حسنًا لك هذا.

* * *

«احتفاليَّةٌ بعد يومين، العمدة سيفتتح مهرجان التَّسوُّق برعاية (جيكل بويز).»

الخبر الأوَّل في العدد الجديد الَّذي انتشر بسرعة البرق في أيدي أهل (هوجو)، ويرجع السَّبب في ذلك إلى أَنَّه المهرجان الأوَّل، وعند ذلك الحد يتفق القاصي، والدَّاني، حيث أَنَّ كونه المهرجان الأوَّل يعني أَنَّ هناك اعترافًا رسميًّا مِنْ حكومة المدينة بتواجدهم، وتجارتهم، أي بمعنًى آخر، الإتاحة لهم بأَنْ يقارعوا مؤسَّسات المدينة، وبكونه المهرجان الأوَّل، يصبح (جيكل بويز) الوجهة الأساسيَّة لكلِّ الرَّجال، والنِّساء، والأطفال، وفي كلِّ الأحوال، إنَّ الأمر أصبح بمثابة دعاية لهم، وإنْ اختلف فيه الصَّعيدان.

إنتبه الجميع، وبدءوا في أعمال التَّأهُّب للحدث الجديد، وهذا الأمر الَّذي رغِب (صديق) في رؤيته، ليتحسَّس دور كلماته في تغيير المجتمع مِنْ حوله، وليشعر أَنَّه نفذ مشيئة الكلمة في الأرض، وهي التَّنوير، والتَّوجيه على أيِّ شيءٍ.

كان يسير بين البيوت منتقلًا مِنْ (هوجو) العليا إلى (هوجو) السُّفلى، يسلِّم بتأنقٍ، ومكانةٍ على عامَّة النَّاس، الَّذين التفوا حوله يطلبون توقيعه، فبطبيعة الحال، كان مِنَ الطَّبقة العليا، الَّتي تنام على السَّرائر النَّاعمة، وتجلس على الكرَّاس الوثيرة، كما يجلس أبناءهم في الصُّفوف الأولى في المدرسة، ويعاملون معاملةً أرقى، وتلك الطَّبقة المتدنية كانت تحلم فقط بأخذ توقيع هؤلاء ذهولًا، وليكون شاهدًا على أَنَّ هناك مَنْ يعيشون بحقٍّ، مَنْ لا يعانون، ومِنْ بين النَّاس، كان هناك كِهلٌ سبعينيٌّ، سقطت أسنانه منذ أعوامٍ، وكان يميِّز وجهه تلك البقع الغامقة، وقف وسط النَّاس وقال:

– يا فتًى!

فنظر إليه (صديق) بينما كان طربًا بكثرة الأوراق الَّتي يطلب أصحابها توقيعًا، فقال الرَّجل:

– ما تفعله سيِّءٌ للغاية.

فتسائل حاجب (صديق) الأيسر، فقال الرَّجل:

– أنت وغدٌ متلوِّنٌ.

فضحك (صديق) مستهزئًا، وقال:

– وأنت تحتاج لأن تذهب إلى الجحيم.

وشَرَع في إكمال ما كان يفعله، بعدما ابتلع الكلمة على مضضٍ.

* * *

اجتمع النَّاس مِنْ كلِّ حدبٍ وصوبٍ، أتوا تلبيةً للأعلانات الَّتي وزعت في كلِّ الأماكن في المدينة، فسمعها الموظَّفون، والفارغون، الأطفال،

والشَّباب أتوا جميعًا ليروا حكم الإعدام العامِّ للصَّحفيِّ الأشهر في المدينة على مرِّ التَّاريخ، والَّذي كان تنظيم إعدامه غايةً في الرَّوعة، والتنسيق، حيث بُنيت منصَّةٌ خشبيَّةٌ كالمسرح، ووضع عليها مشنقةٌ كبيرةٌ، وعندما يقوم المعنيُّ بتنفيذ الحكم، سيُعلَّق المشنوق في أعلى نقطةٍ في المدينة، حيث يشاهده جميع المواطنون و(صديق)؟!

كان جاثًا على ركبيته عاريًا يلتف حول عنقه حبلٌ غليظٌ مشؤومٌ، وعلى جانبيه يقف رجلان مِنْ حفظه الأمن، وفي المقدمة يقف (الشريف)، والَّذي كان يقول للعامَّة:

- اليوم سنتخلص مِنْ هذا الشَّخص المتلون، هذا الشَّخص الذي لَمْ يتوانى لحظةً في أَنْ يعبث بعقول النَّاس، ليفعلوا ما شاء، أو ما أحدٌ شاءه، سنتخلص منه ليرتاح الكون منه.

نظر إلى عينيَّه بحدةٍ كبيرةٍ، فازداد (صديق) بكاءً، وعلى صوته حد النَّحيب.

- أرجوك... أرجوك.

ابتعد عنه الرَّجلان تلبيةً لأمر قائدهم، وليتم الأمر، وقال (الشريف):

- هيا أيُّها العجوز، مِنْ فضلك قم بها.

فصرخ (صديق) موجهًا نظره إلى العجوز:

- أرجوك... أرجوك.

وعندما نظر له صديق آلفه، وعلم أنَّه ذاك الرَّجل الَّذي قال له مرةً:

- إنَّ ما تفعله خاطيءٌ يا بنيَّ.

ولكِنْ في هذه المرة قال مبتسمًا:

- ألقاك في الجحيم.

ورَفع العمود الحديديَّ، ومع بداية سحبه مِنْ عنقه استيقظ مِنْ نومه مفزوعًا، وقال:

- لا!

ولكنَّه هدأ بعد لحظاتٍ، عندما أدرك أنَّه في غرفته، وأَنَّ ما صادفه كابوسٌ لا غير، بلع ريقه، ونظر إلى جانب السَّرير فلم يجدها، فصرخ قائلًا:

- (هيستوريا)!... (هيستوريا)!... أين أنتِ أيتها الحمقاء؟!

فخرج الصَّوت مِنْ الصَّالة يقول:

- لعن الله تلك الكوابيس!، ماذا تريد؟

- أين أنتِ؟! وماذا تفعلين؟!

- أنظِّم لك ملابس اجتماعك مع القادة، قم واذهب للحمام، استحم فرائتحك كلها خمرٌ.

فأخرج زفيرةً مهدئًا مِنْ توتره، وقال في نفسه:

- يا له مِنْ كابوسٍ.

وبعد لحظاتٍ تحرَّك تجاه الحمام.

* * *

الفصل الرابع
الشريف

هل مِنَ الممكن المقارنة بين مسدَّسين مِنْ طرازين مختلفين يحملان نفس سنَة الإنتاج؟

بالطَّبع لا فهما يؤدِّيان نفس النَّتيجة.

هل مِنَ الممكن استبدال أحدهما بالآخر؟

نعم... إنْ كنَّا لم نجرب ما هو أقلُّ، أي إنّ الأمر متعلِّقٌ بالرِّضا، والعجرفة، يبدأ بالإحساس بأوَّل مرةٍ تمتلك فيها شيئًا فتاكًا جيدًا، يحمل في طياته متنفَّسًا للأمان، وينطلق نحو الرَّغبة في التَّملُّك والزِّيادة، ولهذا أصبحتُ بالضَّرورة (الشريف) الجديد، وتلك سيرورة الأمور على الأمد البعيد.

تخطَّى بوَّابة مقرِّ العمدة الفارهة، بعد خوض رحلةٍ مِنْ إلقاء التَّحيَّة والابتسامات، ومن المؤكَّد أنَّها كانت ردًا على مثلها مِنَ النَّاس المارِّين على طوال الطَّريق، والَّذين إنْ لَمْ يكونوا قد ميَّزوه مِنْ شكله المنمق، وشعره الأسود، اللَّامع، المردَّى قليلًا يسارًا، وملامحه الَّتي ورثها عن جدِّه، كالأنف الصَّغيرة المحدَّد، والأعين الزَّرقاء اللامعة، والوجه المتانسق في العموم، لميَّزوه بشخصيته المختلفة الهادئة، ونظرته العابسة الباردة، أو لميَّزوه من سترة (الشريف) السَّوداء الطَّويلة، والقبَّعة ذات الشَّارة الحمراء، ومسدَّسه المكسيكيِّ القديم، والَّذي ورثه عَنْ والده (ميليك)، وبدوره قد ورثه مِنْ أبيه، (الشريف) الأوَّل لمدينة (هوجو).

عُهد (الشريف) الحاليُّ بالجودة في حلِّ الأزمات، إنْ كان مبتغاها الخير في معظم الأمور، ولكنَّه أيضًا عُهد بالصَّمت الجامد، والَّذي لا يُفهم إلَّا حِذرًا لما هو أكبر قدرًا، وأعظم تأثيرًا، فبطبيعة الحال قد تربَّى في بيت أحد الأوائل.

وصل إلى الطَّابق العلويِّ، ومع وصوله فُتحت أبواب غرفة الاجتماعات، والَّتي كانَ يستند سقفها على ستَّة أعمدةٍ مِنْ الرُّخام، ينقسمون إلى ثلاث مجموعاتٍ، وكلُّ مجموعةٍ تتكوَّن مِنْ عمودين متقابلين، وتقع المجموعة الأولى في أولِّ الغرفة، والثَّانية في منتصفها، والثَّالثة في آخِرها، وبين تلك الأعمدة طاولةٌ خشبيَّةٌ مُربَّعةُ الشَّكلِ ثقيلة المادَّةِ، وعدة كراسيٍّ وثيرةٍ صُنعت خصيصًا لمثل تلك الأمور، وعلى الحوائط بين العمود والآخر لوحةٌ مرسومةٌ بالزَّيت، وتجتمع اللَّوحات في المغزى، فيُظهِرونَ بألوانٍ مختلفةٍ جمال مدينة (هوجو).

ألقى التَّحيَّة على الحارس، وانضمَّ إلى الجمع في هدوءٍ، والَّذي كان يتكوَّنُ مِنْ ثلاثة أشخاصٍ لا غير، الأقرع ذو الأربعة عيونٍ، العمدة التَّخِم، وقائد الـــ(جيكيل بويز) العدوُّ اللَّدود لسلالة (الشريف) منذ بداية ظهورهم على أعتاب المدينة، باشر الاثنين بابتسامةٍ خافتةٍ، وباشر (هنري) بنظرةٍ حادَّةٍ دون إلقاء التَّحيَّة، وبتلك النَّظرة ميَّز اجتهاده في التزيُّن ليكون الممثِّل الأوَّل لعائلة (جيكل) تحت ذلك السَّقف، وبعد لحظاتٍ قال:

- رابطة العنق لا تربط بتلك الطَّريقة، كما أَنَّ القبَّعة تُترع عند جلوسك، ومسدَّسك يوضع أمام العيان على الطَّاولة، ألم تتعلَّم ذلك أثناء رعايتك للبقر؟

فقال العمدة باندفاعٍ:

- لا عليك يا (هنري)! لا عليك! نعلم جميعنا أنَّها المرَّة الأولى.

وباشروا (الشريف) بنظراتٍ متفاجئةٍ مبهمةٍ، وبعد لحظاتٍ قال (هنري):

- أعتذر عن هذا أيُّها (الشريف).

وضع قبعته، ومسدَّسه على الطَّاولة، فاشتاط (الشريف) غضبًا مِنْ هدوئه الجبَّار، فقال منفسًا عَنْ غضبه:

- تبًا.

فنظروا إليه متعجِّبين مِنْ حدته، بينما ابتسم (هنري) عندما استدرك الأمر، فقرَّر عدم التَّواني في ردِّ الإهانة:

- على هذا تربيت بينما كنَّا نرعى البقر، الاعتذار والتَّراجع عندما نصل إلى ما لَمْ نحط به علمًا أو...
- عندما نخطيء في تقدير أحدهم.

فازداد غضب (الشريف) وجلى، بينما مرَّر (هنري) ناظريه إلى العمدة قائلًا:

- هلا بدأنا؟

فنظر العمدة (للشريف) نظرة عتَّابٍ، فباعد (الشريف) عينيه عنه، فتنحنح العمدة وقال:

- نحن هنا أسرةٌ واحدةٌ، يَعبُ صدرنا مِنْ ذلك المجهول أطنانًا مِنَ الخوف والقلق، ولهذا انضم لنا ذلك الرَّجل (هنري جيكل).

فابتسم الأخير، ورفع رأسه محيِّيًا الجمع، فباشره (صديق) بابتسامةٍ، وعلى الجهة الأخرى كان الصُّلب صلبًا، فتابع العمدة:

- في خلال يومين سندشِّن مهرجان التَّسوُّق الأوَّل في تاريخ المدينة، وما حمله (هنري) لنا مِنْ أشياءٍ تواكب المستقبل ستكون بأبخس الأسعار للنَّاس، وأعتقد أَنَّ ذلك هو المطلوب فما رأيكم؟ أَلَا يحق له أَنْ يكون

مِنْ ضمن الأسرَّة؟ ألَا يحق لهم أَنْ يتملكوا مكانًا يعشون فيه، ويعودون إليه بعد المطاف حول العالم؟

فقال (صديق) مُرغِّبًا:

- نعم... أعتقد أَنَّ هذا عدلٌ مِنْ نوعٍ ما، وأَنْ تلك حقبةٌ جديدةٌ، ليس لها علاقةٌ بالماضي الجارح، وأَنْ هذا الرَّجلُ الماكِثُ بجواري غير سابقيه مِنْ تلك السُّلالة، أنا موافقٌ.

فابتسم (هنري) خجلًا مِنْ إطراء الرَّجلين، وقال بطيب خاطرٍ:

- لَمْ أتَّفق يومًا مع سياسات الرِّجال منَّا في السَّابق، ووددت لو أغيِّر ذلك المعتقد الرَّاسخ لديكم، نحن لسنا مجرمون أو قطَّاع طرقٍ، نحن فقط أشخاصٌ أردنا أَنْ نتاجر، وأَنْ يكون لنا أناسٌ يثقون بنا ويحبُّون وجودنا.

وبينما كان (هنري) غارقًا في التَّحدُّث عن نبله الكبير، كان (الشريف) يتفحَّص ملامحه أثناء الحديث، وكانت ملامحه، رغم محاولة تحسينها تدلُّ على أنَّه قد قاسى الأمرين في الحياة، مِنْ تنفيذ الأوامر بتنظيف الأبقار، وجمع الأعلاف، وغيرها، فقد كان بالنِّسبة له مجرَّد راعي بقرٍ لا يجب أَنْ يكون هنا، وأَنَّ ما تخفيه النُّفوس مِنَ الضَّغائن يستأهل كلُّ ذلك الكذب والتَّضليل.

أحمر القفا، ذو وجهٍ أقرب للسمرة، وأعينٍ بنيَّةٍ واسعةٍ، ومنخارٍ ينعرج في آخره ويظلِّل فمه، وأمَّا شعره فقد كان طويل الخصلة، خشنٌ، سميكٌ، يتدلل في النَّسيم، فيصل إلى عينيِّه، ومِنَ الخلف يداري القفا الأحمر، ملامحٌ

لن يمحوها الزَّمان مِنْ مخيلة (الشريف)، فهي أيضًا موروثةٌ عن والَّده، والَّذي صادف رؤيته عندما كان صغيرًا.

قاطعه قائلًا:

- دعك مِنْ هذا الكلام، يخرج معه التُّراب، لقد تركتَه على الرَّف المهمل سنينًا طوالًا، أرجوك تحدث بكلِّ صراحةٍ.

فانتبه الجميع متأثرين مِنْ هجومه الحادِّ، فدائمًا ما عهدوه هادئًا لا يهاجم إلَّا إنْ كان ردًا على هجومٍ سابق، ولكِنَ (هنري) كان قد استدرك الأمر منذ بداية الجلسة، فقد علم أَنَّ (الشريف) هنا، ليكمِّل مسيرة والده، ولا يقبل أَنْ يساير الأمور دون حتَّى إيماءةٍ بالرَّفض

- تلك هي الصَّراحة، وكما قلتَ كان كلامي على الرَّف المهمل، الرَّف الوحيد الَّذي أملكه، والَّذي كان مرفوضًا منذ القدم هناك.

وتابع:

- أنا أنتظر على معدةٍ فارغةٍ منذ كنت صغيرًا لأحقق حلمي، وأكون كما أكون غير عابئٍ بما فعله السَّابقون منِّي، أنا هنا الآن، وقد أتيت هذا المكان معتذرًا، أنوي تغيير المفاهيم.
- لا تغترَّ بنفسك، أو بصراحةٍ... لا تُدنس الحقيقة.

فصمت الجميع تأهبًا لحديث (الشريف)، فعندما ينطق لفظةَ الحقيقة، هذا يعني ألَّا شيء سيأتي إلَّا الحقيقة، والحقيقة لا تكفي وعاء العقول، وإنَّما تكفيها الجوانح كلُّها.

- لا تدنِّسها، أباك كان مجرمًا أرادَ مِنَ الوهلة الأولى السَّيطرة على المدينة بالقوَّة، كانت نواياه حقيقيَّةً، واضحةً، جليَّةً،كذلك الجمع،

ولهذ احترمه والدي، لقد كان رجلًا واضحًا، وتُقدِرُ ذكراه لـــذلك الوضوح، إنَّ الاشخاص كالسُّيوف، يمكن أَنْ يبقـــوا راســـخين في الذِّكرى، وتتناقل ذكراهم بين الأجيال، هذا وإنْ كان السَّيف يحـــدُّ باستمرارٍ، حتَّى ولو كان سيفًا بيد الشَّرِّ، وما أراه الآن ليس إلَّا ابنًا عاقًا يدنس شرف والده، أو إنَّك تخوض حربه بطريقةٍ مختلفةٍ، كرأسٍ للأفعى، وأعتقد أَنَّ تلك هي الحقيقة، أنت تفتخر به في قرارة نفسك، وتشعر في داخلك بالضِّيق الكبير، لأنَّك لا تخوض الأمر على شاكلته ولكنَّك تُسكِنُ نفسك طوال الوقت بأَنَّ تلك الطَّريقة هي المثلـــى، اعترف بالأمر، دعه يخرج مِنْ داخلك، هل تنفذ إرادته، أم أنَّك ابنٌ عاقٌ لوالده؟

فقال (هنري) بصوتٍ خافتٍ باردٍ:

- أهذا ما تعتقده في والدك أيضًا؟ أهذا ما تشعر به؟ أهذا مـــا دفعـــك لقول هذا الكلام رغم أَنَّ وجودي هنا نافذٌ لا محالة؟ يالك مِنْ طفلٍ كبيرٍ أيُّها (الشريف).

تحولت الغرفة إلى صحراء قاحلةٍ لا رحمةً فيها، ولا هوادة، وبينمـــا ثَبـــتَ المتعاديان «بالضَّرورة» أعينهما على بعضهما البعض، كان الاثنين الآخرين ينظران لهما بتأهبٍ وخشيةٍ...

هل سيحدث الأمر؟ هل سيقتل أحدهما الآخر؟

ضرب العمدة بكفَّيه الطَّاولة، فعاد الجميع مِنْ شروده، قال ومعالم الخـــوف تظهر على وجهه:

– لقد انتهى الاجتماع، ليعود الجميع إلى محلِّ عمله، وباشروا الأمـــور كما خططنا لها.

فوقف الجميع، وصافحوا العمدة مغادرين غرفة الاجتماع، متأثِّرٌ كلُّ شخصٍ بعقدته، بينما تركوا خيط الحقيقة ملقًى في موضع الأقدام تحت الطَّاولة.

* * *

– إنَّها الحصَّة الأخيرة في اليوم الدِّراسي، ولهذا لـــن أطيـــل علـــيكم الشرح...

رداءٌ أسود يصل إلى الرُّكبة، قبَّعةٌ رماديةٌ بشريطةٍ سوداء، ووجهٌ أسمر البشرة بعيونٍ تختبيء داخل جحرين مظلمين، تلك أشياء كانت تضيِّفُ للصَّـــوت الخشن رونقًا خاصًا، وفي المجمل كان يخرج الحديث مِـــنْ شـــخصٍ قـــويِّ الحضور، ولهذا كان هو مدير مدرسة (هوجو)، الأستاذ (أورلاند)، قـــاطع كلماته طِفلٌ مِنَ الصَّفِّ الأوَّل عندما أعطاه ورقة الغيَّاب، فنظر إلى نصفها الأعلى بتمعُّنٍ شديدٍ، مرَّر عينيه على الباقي في إهمالٍ واضحٍ، وبعدما لاحظ وجود أحد الأطفال المهمِّين، ذهب تجاه الصَّفِّ الأوَّل مِنْ ناحيـــة اليســـار، وقف أمام أحد الأطفال المنمَّقين في ملبسهم، وتسريحة شعرهم، وسأله قائلًا:

– (توماس)، لِمَ غبت البارحة؟

فخرجت همهمات الأطفال في الصُّفوف الأخيرة مِنَ الفصل إعتراضًا علـــى إهتمام المعلِّم بطفلٍ بعينه، فقال (توماس) غاضبًا:

– لِمَ تسأل عن طالبٍ بعينه؟

فتفاجأ المعلِّم مِنْ ردة فعل الصَّبيِّ، حيث أَنَّ لسؤال المعلم قدرًا كبيرًا، وإعطاءُ مكانةٍ منفردةٍ عَنْ باقي الطُّلاَّب، ولَكِنَّ هذا الأمر الَّذي طالما كان يرفضه (توماس)، ويحاربه بكلِّ إرادته، فهو المعروف عنه بأَنَّه (شريف) المدرسة، وناصر الفقراء، وقاضي الطَّبقيَّة، قال المعلِّم:

– يا لك مِنْ ولدٍ!

تنحنح في خجلٍ، وقال:

– حسنًا... سنتحدث اليوم عَنِ الحدث الأهمِّ في المدينة منذ نشأتها كما يقول العمدة، وكما تقول الصُّحف، وكتاب التَّاريخ.

وقال بعد أَنْ لاحظ إنصات الصِّبيَّة:

– مهرجان التَّسوُّق برعاية (جيكل بويز).

فخرجت أصوات اعتراضٍ في آخر الفصل، ومعهم خرج صوت اعتراض (توماس) وحدة مِنَ الصُّفوف الأمامية، فنظر المعلم إليه نظرة عتابٍ على توليه أمر هؤلاء الصِّبيَّة، فصاح (توماس) رافعًا وتيرة الغضب:

– لِمَ لا تتحدَّثون عَنِ اختفاء (ستيف)، و(فرانك)؟

فازدادت صيحات الصِّبيَّة بالاعتراض، وعلت، وهنا اضطرَّ المعلِّم لمغادرة الفصل بعد أَنْ أشار إلى (توماس) بالخروج معه، وفي غرفة المدير، تبعه (توماس)، وعند دخوله راوغه المعلِّم بالاقتراب منه، انحنى وأمسك كتفه قائلًا:

– أعلم أنَّك (شريف) مثل والدك فكما يقول المثل «شريحة مِنَ الكتلة القديمة».

فقال الصَّبيُّ بخبثٍ:

– مِنْ أمثال (جيكل بويز).

فضحك المعلِّم في حنقٍ مبتعدًا عنه، وبعد سيرٍ صامتٍ تجاه الشُّرفة، قال:

– بالطَّبع ترفضهم، هذا هو المتوقَّع على كلِّ حالٍ، ولكِنْ...

نظر إلى الصَّبيِّ، وقال:

– لن أتحدَّث مع والدك عن شغبك هنا، سيكون الأمر بيني وبينك، ولكِنْ اعلم شيئًا، هاذين الطِّفلين من (هوجو) السُّفليَّة وأنت تعلم طبيعة حياتهم، قناعاتهم، عاداتهم، وتقاليدهم، هؤلاء لا يصلحون لأن يتواجدوا مع علياء القوم في مكانٍ واحدٍ، ولكنَّها كلمة جدِّك على كلِّ حالٍ...

فقاطعه الصَّبيُّ ثائرًا:

– مثلما مُنِعَ النَّاس عَنِ الحديث عَنْ (أركان)!

فوسِّعت عينا المدير غضبًا مِنْ قوله، وفي تلك اللَّحظة، اضطرَّ (توماس) إلى العدول عَنْ حدته، فتابع المعلِّم:

– إنْ لَمْ تكن تريد الاعتراف (بجيكل بويز) فهذا عائدٌ لك، وإنْ كنت لا تريد الاعتراف بما فعله جدُّك مِنْ خيرٍ للمدينة فهذا أيضًا عائدٌ لك، ولكن أَنْ توصِّل تلك الرِّسالة إلى والدك فهذا يعود لي في تربيتك وتعليمك.

أمسك بورقةٍ، وقلم، وأخذ يكتب أمرًا ما (للشريف)، قال:

– لقد انخرطت مع هؤلاء كثيرًا، ويجب أَنْ يعلم والدك هذا.

أعطاه الورقة، ولاح له بالخروج، ومع الأمر خرج (توماس) زافرًا مِنَ الغرفة، وهو على درايةٍ كاملةٍ بأنَّه سيواجه بأسًا شديدًا في بيت (الشريف).

* * *

قرأ ما كُتِبَ في الورقة بعد خروجه مِنَ المدرسة، فحنق، وقال للصِّبية مِنْ حوله، والَّذين جمعوا انتظارًا لردَّة فعله:

– ذلك الثَّرثار.

فقال أحد الصِّبيَّة الفقراء:

– لا عليك يا صديقي سيمرُّ الأمر، فبطبيعة الحال أنت مِنْ كبار المدينة، وسيطك يرتفع في الأعالي، وهذا الأمر لن يقف أمامك، ولو للحظةٍ.

كان المشهد مثيرًا للشَّفقة، والفضول، عندما هبط مجموعة طلَّابٍ مِنْ (هوجو) العليا إلى شوارع (هوجو) السُّفلية، الضَّيقة، ومِنْ بينهم كان هناك ولدٌ نظيف الملابس ولامعٌ،كان الأمر مثيرًا للشَّفقة، لكون النَّاس لَمْ يعتادوا على مثل تلك الزَّمالة، والرِّفقة، وكان مثيرًا للفضول، إذْ كيف له أَنْ يأتي إلى هنا مع هؤلاء؟ شابٌ بقبَّعةٍ سوداء، وقميصٍ أبيض، معلقٌ في أعلاه رابطةٌ، وبنطالٌ أسود، ويسير حوله عددٌ مِنَ الصِّبيَّة، والَّذين كانوا يلبسون أرديةً متَّسخةً، ومرقَّعةً، هكذا كان المشهد.

– لقد قلت مئات المرَّات بألَّا تتحدَّث معي بتلك الطَّريقة.

فقال صبيٌّ معروفٌ عنه جرأته مِنْ بينهم:

– أنا لا أمزح أو أقول شيئًا غير مألوفٍ، بل إنَّه شيءٌ ملموسٌ، ويعلمه الجميع هنا.

فتوقَّف (الشريف) الصَّغير، ومع وقوفه توقف الشَّباب، فتابع الولد غير عابئٍ:

– انظر حولك هذا ليس مكانك، ليس مكانًا آدميًا على كلِّ حالٍ.

فقال (توماس) حانقًا:

– وها نحن ذاهبون إلى المزار كعادة كلُّ الأيَّام، وأنا معكم أشارككم.

فاتَّجه الصَّبيُّ بجسده إليه، وصاح قائلًا:

– دع عنك هذا الكلام! أرأيت كيف يسألك المعلِّم غير عابئٍ بغياب (فرانك)، و(ستيف)! شئت أم أبيت! أنت ابن (الشريف)، فضلًا عن أنَّك مِنَ الأغنياء!

– أرجوك!... تحدث عن أيِّ شيءٍ غير ذلك! ولا تشعرني بأَنَّ كلَّ معاناتك أَنَّك ابن أحد الأغنياء!

وبينما على صوته سمعه أحد رجال الطَّريق، فسريعًا ما ركله في ساقه مِنَ الخلف، وقال موجهًا حديثه (للشريف) الصَّغير:

– اعذره... إنَّه لا يعي ما يقول.

فوقف (الشريف) متفاجئًا مِنْ بادرة الأمر، وكيف لرجلٍ مارٍ، لَمْ يسمع حتَّى أوَّل الكلام، أَنْ يتدخل بقسوةٍ ويضرب فتىً لا يعرفه، فقط لأنَّه لاحظ تحدثه مع ابن (الشريف) بشيءٍ مِنَ القسوة العاديَّة بين مَنْ في مثل عمرهم.

فقال الفتى الملقى أرضًا، بعد أَنْ اعتدل في جلسته، وضمَّ ركبتيه إلى صدره، ولف حولهُما ذراعيه:

– أرأيت؟! شئت أم أبيت.

ألقى (توماس) حقيبته أرضًا، تحرَّك تجاه بيته غاضبًا، بعد أَنْ لاحظ ابتسامة الفتى الخانقة، لَمْ يجد حلًا سوى الهروب، سوى الذَّهاب لعقر داره، لأنْ ينفجر كالبركان في وجه أحد الكبار، هذا ما يُمليه العقل، والضَّمير، إِنْ كان يريد أَنْ يصير (شريف) بشيءٍ أو بآخر.

* * *

كلمة (الشريف، **sheriff**) تعتبر اختصارًا لمصطلح (شير ريف)، وهذا المصطلح مِنْ أصلٍ (أنجلوسكسوني)، حيث يوصف به المختص بحفظ الأمن، وهذا يخص المقطع الأوَّل منها (ريف)، وأمَّا المقطع الثَّاني (شير) فيشير إلى ممثل العمدة، وعلى هذا المعنى الكامل هو: (ممثل العمدة لحفظ الأمن)، وقد نشأ المصطلح في (إنجلترا) قديمًا، ثُمَّ انتقل مع الوقت إلى البلدان الأخرى.

* * *

الفصل الخامس
حقائق الشريف

رجلٌ منمَّقٌ في أواخر سنِّ الثلاثين، لا يجده النَّاس إلَّا في رداءه الرَّسميِّ، حيث يعتقد البعض بأنَّه يعيش به في كلِّ مكانٍ، ويقول السَّاخرون بأنَّه ينام به، ولكنَّه برغم كلِّ ذلك يحبُّه. القميص الأبيض داخل البنطل الأسود، ويربط بينهما حزامٌ أسود، وفي الأسفل حذاءه الأسود اللَّامع، كما يوجد في جانبه شارته، ومسدَّسه ذو التُّراث (المكسيكيِّ)، عيناه كانتا تشبهان عيني والده، وابنه يملك نفس العينين، الزرقاء جليَّة، وملامحه دقيقةٌ متناسقةٌ، كأحد رجال (الغرب الأمريكيِّ القديم)، هو لا يعدُّ غريبًا، وبالنِّسبة لشعره البنِّيِّ الثَّقيل، والنَّاعم كان يَرُدُّهُ قتيلًا إلى الجانب، ولحيته كانت قد هربت منذ القِدم، وأمَّا شاربه، فكان سميكًا، وغليظًا، في النِّهاية كان مظهره يدلُّ على قوَّة شخصيَّته، واحترامه لمكانته، ونزاهته.

ثلاثة غرفٍ وصالةٍ، في كلِّ طابقٍ مِنَ الطَّابقين، هكذا عرفت بيوت (هوجو) العليا، وبالطَّبع كان بيت (الشريف) أكثرهم علوًّا ورقيًّا، ولكِنَّ سبب ذلك ليس لكونه بيت (الشريف) كما يقول النَّاس، وإنَّما كان بسبب وجود صورة (ميليك) به، والَّتي كانت معلَّقةً في مكتبه، كان جالسًا في مكتبه «الَّذي شَغَرَ له غرفةً منفصلةً»، يقرأ جريدة (الحقيقة) وقد أوقفه مقال (صديق)...

سعيًا مِنْ إدارة مدينة (هوجو)، مدينتنا الفاضلة، نحو تقديِّم كلِّ ما هو مفيدٌ للنَّاس، قام العمدة بإبرام اتفاقٍ ينص على إنشاء مهرجان التَّسوُّق التَّاريخي للمدينة، والَّذي سيقام بعد يومين مِنَ الآن في ساحة المدينة، والجدير بالذِّكر أَنَّ العمدة، و(الشريف) سيكونان موجودين في الافتتاح، وهذا لتسليط الضَّوء على أهمية السُّوق لمستقبل المدينة، ولكِنْ لنتوقَّف هنا

للحظاتٍ، (جيكل بويز)؟ مَنْ هم (جيكل بويز)؟ ليس الأمر مجرَّد تعريفٍ بأنَّها العِيرُ الَّتي تأتي سنويًا منذ القِدم، أو أنَّهم القوم الوحيدون الَّذين استطاعوا قطع الطُّرق المتوحشة، والضَّحلة للقدوم إلى أعتاب مدينة (هوجو)، ولكِنَّ الأمر باختصارٍ أَنَّ (جيكل بويز) الحاليون مختلفون عَنْ (جيكل بويز) السَّابقون، وبالطَّبع حرصت الإدارة على التَّأكُّد مِنْ ذلك حفاظًا على ما قضى (الشريف ميليك) عمره في محاربته، استمتعوا باليوم، وتجهزوا جيدًا له، وبالتَّأكيد قرَّرت ألَّا أطيل عليكم المقال، رغبةً في الاستعداد لليوم التاريخيِّ.

ضحك ضحكةً جانبيةً عندما أنَّهى المقال، فكان لسان حاله يقول:

– يا لك مِنْ رجلٍ يا (صديق)! تعرف أين تضع كلمتك.

قال:

– إذًا عليَّ التَّجهُيز لهذا اليوم.

وبعد لحظاتٍ، تحرَّك مِنْ موضعه تجاه صورة والده، نظر إلى ملامحه بدقَّةٍ، ابتسم عندما تذكَّر حضوره، وفي لحظةٍ ما، مدَّ يده ليلمسها، وقال:

– أنا هنا بسببك، أنا أكره النِّفاق كما كنت تكرهه، ولكنَّني لست بقدرتك على اتِّباع حدسك، أنا مازلت ضعيفًا ينتظر حدوث الأمر، إنَّ (جيكل بويز) يخطِّطون للسَّيطرة على المدينة، وأنا أشعر بذلك ولكنَّني لا أستطيع قلب الطَّاولة كما كنت تفعل...

فخرج صوت الصَّبيِّ، بينما كان يمرُّ مِنْ باب المكتب:

– حسنًا... وما الحلُّ في ذلك؟

فاهتز (الشريف) إثر المفاجأة، ولكنَّه سريعًا ما ضبط نفسه وعاد إلى مكتبه وقال:

– لا أعلم، ما الَّذي أتى بك مبكرًا؟

فهرول الصَّبيُّ تجاه المكتب، وضع الوَّرقة بقوةٍ قائلًا:

– هذه ورقةٌ مِنَ المدير، إنَّه يرى أنَّني أنخرط بكثرةٍ مع عامَّة النَّاس.

قال حانقًا:

– ذلك العنصريُّ.

فرفع (الشريف) نظره تجاهه، فاعتدل الصَّبيُّ في حدته، وبعد لحظاتٍ استغرقها في قراءة ما كتب في الورقة، قال:

– يقول المدير بأَنَّ لديك فكرًا خاطئًا تجاه الكثير مِنَ الحقائق، ويطلب منِّي أَنْ أتحدَّث معك.

فقال الصَّبيُّ بغوغائيةٍ:

– لا أملك أية أفكارٍ خاطئةٍ عَنْ الواقع، إنَّه يرميني بتهمةٍ ليست حقيقيَّةٍ.

وتَبِعَ حديثه أصواتٌ تظهر وكأنَّها حديثٌ، ولكنَّها كانت غير مفهومةٍ، فسريعًا ما أشار (الشريف) إلى ابنه قائلًا:

– مهلًا، مهلًا.

أشار بيده تجاه الكرسيِّ، وقال:

– اجلس.

فجلس الصَّبيُّ دون أن ينبثَّ، وبعد لحظاتٍ مِنَ الصَّمت، قال (الشريف):

– عمَّاذا تريد أَنْ تعرف؟ لديك فرصةٌ جيدةٌ لهداية ما بك مِنْ شكوكٍ، ستأخذ المعلومات مِنَ (الشريف) شخصيًا.

فابتسم الصَّبيُّ مِنْ بسمة الأب، وقال:

– أريد أَنْ أعرف، لِمَّ هناك طبقيةٍ في (هوجو)؟ ولِمَّ يُصِرُ النَّاس هنا على ذلك؟

فقال (الشريف) بسماحة نفسٍ، وبلسانٍ قد نطق الحق كثيرًا:

– إنَّه أمرٌ طبيعيٌ في المجتمعات المنغلقة على نفسها، فدائمًا ما كان يقول جدُّك لي هذا:

" تشتعل الصِّراعات دائمًا في المجتمعات الفقيرة والجاهلة، بينما تنعَم بالهدوء المجتمعات الَّتي تملك قوت يومها، وما يزيد، ولهذا فمن الطبيعيِّ ألَّا يشعر الطَّرفين بمعاناة بعضهما، ومع الوقت تنمو بؤرة التَّفرقة، حتَّى تصبح مشاعًا للنَّاس، شمسًا يراها كلُّ مبصرٍ، هناك مَنْ يتقبلها ويرضى بها، وهناك مَنْ يضطرُّ لفعل الأمور الطَّائشة، ودورك ودور مَنْ يفهم ذلك أَنْ يكون على الحياد المشترط، كما أفعل أنا ذلك، أَنْ تحلَّ ما يقع أمام عينيك مِنْ مشاكلٍ، ولكِنْ لا تحلُّ ما يبتعد عَنْ حدودك، حتَّى لا تجذب المشكلات.

فقال الصَّبيُّ منفعلًا:

– الحياد؟!

وتابع:

– كيف الحياد؟ لا أستطيع الهدوء، وأنا على درايةٍ كاملةٍ بِأَنَّ هناك أحدهم ينعم حدَّ الإسراف، وآخر لا يملك حدَّ العيش! لا أستطيع التَّعايش مع ذلك.

فقال (الشريف):

- حسنًا... وهذا جيدٌ لك، ستكون (شريف) جيدًا مثل جدك (ميليك) سيقولُ النَّاس في المستقبل تلك الأمور كما هي العادة، (ميليك) استطاع إعطاء حقِّ المعايشة للجميع، كما قضى على (بيلي ذا كيد)، (الشريف) استطاع الحفاظ على النِّظام المجتمعيِّ، ومواجهة (جيكل بويز)، (توماس) استطاع القضاء على الفقر، أعتقد أَنَّ الأمر يتماشى حقًا.

فزاد غضب الصَّبيِّ مِنْ برود والده، فصَّاح بجرأةٍ لَمْ يستطع كبحها:

- ما هذا البرود؟! إنَّك تعلم أَنَّ رأييَّ هو الصحيح! ولكنك لا تنفذه! لِمّ تفعل هذا؟! ألست (شريف)؟!

فقال (الشريف) بحدَّةٍ:

- ماذا يعني (الشريف)؟ أجبني.

فصمت الصَّبيُّ مِنْ حدة والده الغير معهودةٍ، فتابع (الشريف):

- يعني ألَّا تمس يداك الخطيئة، وهذا مناقضٍ لمفهوم البشر، يجب أَنْ تخطيء، ويجب أَنْ تصلح خطأك، تلك هي الحَّقيقة الثَّابتة في الحياة، كما الموت تمامًا وأنا لست كذلك، وجدك أيضًا لَمْ يكن كذلك.

فتوجَّس الصَّبيُّ خيفةً عندما فهم مراد كلمات (الشريف) الأخيرة، ولكنَّه قال بصوتٍ خفيضٍ متقطعٍ:

- وهذا يعني؟

فقال (الشريف) زافرًا بعد أَنْ تعب مِنْ كثرة الكبح:

- لقد آثم جدُّك عندما قال للنَّاس بأنَّه قتل (بيلي ذا كيد)، أو حتَّى أنَّه ضيَّق عليه الأمر لينتحر، كما آثم عندما فرض على النَّاس عدم ذكر اسم (أركان)، كما كان يفرض عليهم أَنْ ينبذوه، وكان ذلك بسبب خوفه مِنْ عودة (بيلي) إلى المدينة، ولكنَّه برغم ذلك، وبعد سنواتٍ مِنْ جلد الذات، نجح في أَنْ يسير في الطَّريق السَّليم، أَنْ حارب وجود (جيكل بويز)، أَنْ جعل التَّعليم مجانيًا لكلِّ الفئات، أَنْ اهتم بالفقراء والمسَّاكين، ووقف في صفهم، لقد كفَّر عَنْ خطيئته بالسَّير في الطَّريق الصحيح.

أنهى حديثه، ومعه سقط آخر أعمدة الحقيقة في عقل الصَّبيِّ، فقد أدرك بعد كل ذلك، أَنَّ لا (شرف) كما يعتقد، وأَنَّ تلك المدينة تعيش على كذبٍ وكذبٍ.

(ميليك)... (شريف)؟ كذبٌ، وكذبٌ.

موت (بيلي ذا كيد)... كذبٌ، وكذبٌ.

(أركان) سفَّاحٌ منبوذٌ؟ كذبٌ، وكذبٌ.

والده:

- وما حقيقتك؟
- خطيئتي هي معرفة كلِّ تلك الحقائق، والتزام الصَّمت.

فقال الصَّبيُّ بصوتٍ باردٍ كالسقيع:

- وكيف ستكفر عَنْ ذلك؟
- بأَنْ أحارب (جيكل بويز.
- وكفى؟

- أيُّ إجراءٍ آخر سيقضي على سمعة جدِّك، وسمعتي... وسيعيث في الأرض فسادًا، تلك الحقيقة تحمل معها الفوضى.

وتابع:

- بعد وفاتي انشر الحقائق وكن أنت حيث تكون الآن.

وقال بصوتٍ امتزج فيه الحزن، والألم، والضِّيق امتِزاجًا:

- لعلَّ ذلك يكون تكفيرًا أيضًا.

صمت الطَّرفان، بعد أن رأيا ألَّا سبيلَ للكلام، الفتى قد راح بصره تجاه صورة جدِّه، نظر لها بتمعنٍ، وكتمانٍ، و(الشريف) قد راح بصره تجاه كلمةٍ في مقالة (صديق)، وكانت (جيكل بويز)، فنظر لها بتمعنٍ وكتمانٍ، لقد ساد الصَّمت اليوم، وعلت الحقيقة فوق الرُّؤوس، ولكنِّها للآن مأسورةٌ في هذا المكان، ولا شك بأنَّها ستحلق خارجةً قريبًا.

* * *

الفصل السادس

المهـرجـان

المدينة الفاضلة (هوجو)، اكتشفها القدماء، وكانت في البداية مجرد أرضٍ خصبةٍ منحصرةٍ بين أربعة جبالٍ مرتفعةٍ، وكانت تحتوي على هضبةٍ مرتفعةٍ قليلًا، وهنا أتت فكرة التَّقسيم، حيث كان للأوائل الحقُّ في تملك الأرض العليا، وللعامة تملك الأرض السُّفلى، ومع مرور الوقت، رضيَّ النَّاس بتلك القسمة، وعاش كلُّ فردٍ يحاوط ما يملكه بكف يده، ولا يعنيه الخارج في شيءٍ، واليوم، يكتب التَّاريخ شيئًا جديدًا عَنْ هذه المدينة الفاضلة، مهرجان التَّسوُّق، أو مهرجان (جيكل بويز)

انبسطت الأيدي، وابتسمت العيون الآملة، وانفرجت خطوب الفقراء بما يحمله العالم مِنْ جديدٍ، وبأسعار بخسةٍ، كان حلمًا بالنسبة لهم، وها هم يعيشونه، ولَمْ يكن الفقراء فقط المعنيون بالأمر، بل إنَّ الأغنياء أيضًا كان لهم الحصَّة الكبرى، حيث أخذوا يحجزون أعدادًا، وأعدادًا مِنَ الأشياء الرائعة لهم، ولرفاهية التَّملك، ولأنانية ألَّا يمتلك أحدٌ مثلهم شيئًا، التفوا حول عربات الشِّراء في كلِّ مكانٍ قبل بدء المهرجان بدقائقٍ، وبالرَّغم مِنْ أَنَّ (جيكل بويز) كانوا حرصين على عدم الشُّروع في أعمال البيع تلبيةً لأمر قائدهم (هنري)، لَمْ يكن النَّاس هنا على استعدادٍ للصبر أبدًا، فلا البطون الجوعى تستطيع رفض الطَّعام، ولا الأموال ترغب في البقاء.

كانت السَّاحة في منتصف المدينة، ساحةً صحراويةً كبيرةً، لَمْ يكن لها استخدامٌ في الماضي، ولكنَّها اليوم تزينت بأجمل الحليِّ، مِنْ أضواء، وألوانٍ، وضجيجٍ.

بنى رجال العمدة منصةً شرفيةً فوق الجزء المرتفع مِنَ السَّاحة، وكانت ترتفع عَنْ الأرض بضع أمتارٍ، بحيث يرى الجالس عليها السَّاحة بمن

فيها كالنَّمل، ويرى النَّاس المنصة كالشَّمس، وفي تلك المنصة وضعت عدة كراسٍ وثيرةٍ يُعرف بها الأمراء، والحكام، وكانت موضوعةً بنظامٍ معينٍ، حيث يكون في المنتصف العمدة، وبجانبه الأيمن (الشريف)، وباقي الكراسي كانت لمدير المدرسة كممثِّلٍ للتَّعليم، ومخطط المساكن، كممثِّلٍ للإسكان، والصَّحفي (صديق)، ورجال صفوة (هوجو)، وأما على اليسار، فكان لـــ(هنري) ومَنْ معه مِنْ رجالٍ.

دقَّت الطُّبول، وعندها انتبه الجمع لقدوم موكب كبار (هوجو)، ومعهم ظهر رجال (جيكل بويز) لمقابلتهم، وبعد مرور دقائقٍ تقابل الجمعان، وعانق العمدة تحت أنظار (الشريف) قائد (جيكل بويز)، فاشطات (الشريف) غضبًا، ما جعله يقول:

– إنَّ العمدة يحب قومك.

فقال (هنري) ضاحكًا، بينما كان مقبلًا عليه:

– لقد سرقتُ قلبه.

فابتسم الجمع برقيٍّ مبالغٍ فيه، بينما ردَّ (الشريف) مصافحًا له:

– قلبه فقط، حتَّى الآن.

تبادلا نظرة الكره لبعضهما البعض، فكانت ابتسامة التَّحدي على وجه (الشريف) تدغدغ هواجس (هنري)، وكانت ابتسامة (هنري) ذو الوجه البشوش المستهلك مِن كثرة التَّصنُّع تشير إلى البغض، والقنوط، فقال (صديق) عندما لاحظ ذلك:

– حسنًا لا تفسدا الأمر، إنَّ النَّاس قد جمعوا للسُّوق، ولا حاجة لهم في رؤية المشكلات، هيا لنفتتح المهرجان.

وتابعه (أورلاند)، بينما كان ينظر إلى العمدة:

- هيا بنا أيها العمدة.

فسريعًا ما لكز العمدة (الشريف) في ذراعه، وقال بصوتٍ خفيضٍ:

- لا تفسد الأمر.

فقال (الشريف) بذات النبرة:

- أنا لا أحب هؤلاء القوم، رعاة البقر.

فنظر العمدة له نظرة استنكارٍ، فقال (الشريف) مغلوبًا على أمره:

- هيا بنا، لك الطَّليعة يا (هنري).

سبقهم (هنري)، وأخذَّ يشير لكلِّ واحدٍ منهم على مجلسه بكرمٍ مبالغٍ فيه، فما كان يملك إلَّا إثبات طيبته اليوم للجميع، ولا أظن أَنَّ هناك أهم مِنْ صفوة (هوجو)، وبعد دقائقٍ جلس كلُّ واحدٍ منهم على كرسيَّه، وهنا أشار (هنري) لرجاله في الأسفل بأَنْ يبدأوا قرع الطُّبول، كمراسمٍ شرفيةٍ لجلوس علياء القوم، وليلفت نظر العالم إلى أنَّه يجلس ها هنا بجانب العمدة، بأنَّه لَمْ يعد راعي البقر الجاهل، والفقير، بل إنَّه أصبح مقارعًا جيدًا لصفوة القرى، والمدن ليخبر العالم بأنَّه كبر، وطال، وأصبح، ليخبر العالم بأنَّه على بعد خطوةٍ مِنْ أَنْ يصير العمدة! بات الحلم قريبًا... بات الحلم قريبًا...

تنحنح العمدة، وقف في مكانه، أمسك بمكبِّر الصَّوت، والَّذي صعُب عليه استعماله في بادئ الأمر، لكونِّها المرَّة الأولى له في حمله، كما أنَّها المرَّة الأولى له في التَّحدُّث للجموع، وبالطَّبع لَمْ تكن كلِّمته ذات معنًى.

"مرحبًا بكم أنا العمدة، أنتم تعلمون ذلك أليس كذلك؟"

اشتدَّ عليه التَّوتر عندما سمع ضحكات رجال (جيكل بويز) مِنْ خلفه، وما تلاها مِنْ همهمات الجمهور، فسريعًا ما وضع مكبِّر الصَّوت، ابتلع ريقه في توترٍ شديدٍ، وبالطَّبع لَمْ يرغب في العودة إلى مكانه، فطلب الذَّهاب إلى الحَّمام، علَّ النَّاس تنسى ما حدث منذ لحظاتٍ، وفي محاولةٍ لاستعادة حضوره الغنيِّ.

تبعت كلماته بعض الموسيقى والهتافات، وبعد لحظاتٍ مِنَ العزف والغناء، خرج على العامَّة (هنري) بصفته الطرف الآخر، وفي تلك اللَّحظة بالذَّات انصت الجميع، وبما فيهم رجال (جيكل بويز).

"أهلًا بكم في أرضكم، نعم هي أرضكم، لا تدعوا جمال ما تروه مِنْ اختراعاتٍ صنعها العالم لكم بأَنْ تشتتكم نحو أنَّكم لستم هنا، بأَنْ تنسوا أنكم في (هوجو)، وهذا ما صنعناه لكم، ردًا للخير الَّذي رأيناه منكم طوال سنوات مجيئنا هنا، نحن بكم ولكم، وهذا الاحتفال على شرفكم، وليس شرفنا".

"قبل أَنْ يبدأ الاحتفال، أريد أَنْ أحكي قصةً قصيرةً، لن أطيل عليكم فأنا أعلم رغبتكم في معايشة المهرجان، ولكِنْ اعذروني قد كان حلمًا، أنا (هنري جيكل) راعي بقرٍ أبًا عَنْ جدٍّ، لَمْ أتعلَّم عِلمَ الكرَّاس والقلم، وإنَّما عملتني الدُّنيا، وأتتني بما تطويه من صعابٍ وتجاربٍ، نشأت في حظيرةٍ، أمرٌ لا تعرفوه حتَّى الفقراء منكم لا يعرفونه، لا ماء، لا دواء، لا أساليب للمتعة، انظروا إلى شعريَّ الأبيض الَّذي يشتعل شيبًا، انظروا إلى التَّجاعيد الَّتي شرعت في الظُّهور، بالرَّغم مِنْ أَنَّ سنيَّ لَمْ يتعدَّى الأربعين، إنَّ هذا الشَّيب بفعل الأحزان، تلك اللَّيالي الَّتي قضيتها أبكي بحرقةٍ، أنا لست قانطًا أبدًا؛

فلو كان والدِّي كذلك ما كان ليتحمل بأس (ميليك)، وما كنت هنا لأتَّحملَّ بأس ابنه.

نظر إلى (الشريف) بتحدٍ، وغضبٍ، وتابع:

- أنا لست قانطًا عليكم، أنا أكرهكم، تلك الأرض ملك (جيكل) بشرعية التَّمني، تلك الأرض المبنية على الظُّلم، والقهر، والنِّسيان، تلك الأرض ملكي.

رفع ذراعيه في الهواء وكأنَّه يحلق كالطَّير في السَّماء، وقال:

- ليبدأ المهرجان.

ومع كلِّمته خرج بعض الرِّجال مِنْ خلف المنصَّة، بينما كانوا يحملون جثَّة العمدة، وأثناء لحظة الصَّدمة، أخرج كلُّ فردٍ مِنْ (جيكل بويز) سلاحًا رشاشًا لَمْ يكن أبدًا في مخيلة أهل (هوجو) أنَّه موجودٌ في أرض الواقع، ولكنَّهم عندما رأوا الجثثَّ تتطاير، والدِّماء تسيل على الأرض أيقنوا أنَّه شبحٌ مِنْ عالمٍ ما، وأَنَّ عليهم الهرب منه، وفي المنصَّة انتشر الذُّعر كالنَّار في الهشيم، ونجح عددٌ مِنَ الرِّجال فقط في الهروب مِنْ وابل الرَّصاص، ولكِنَّ الآخرين كانوا قد سقطوا.

هرب مَنْ هرب، هربوا ومعهم الذُّعر، والتَّشتُّت، هربوا فهرب النَّاس الغير معنين بالمهرجان معهم، وسريعًا ما خلت الشَّوارع والطُّرقات مِنَ المارَّة، وأغلقت البيوت على مَنْ بها، ولكِنْ سريعًا ما أتت أوامر (هنري) بأَنْ ينتشروا في المدينة يقتلون، وينهبون، ويغتصبون، وأَنْ يأتوا برأس (الشريف)، و(بصديق) حيًا، وبالطبع لَمْ يحرفوا كلماته، إذ انتشرت جماعاتٌ مِنْ (جيكل بويز) في مدينة هوجو يقتلون، ويقتحمون البيوت، وينهبون،

ويغتصبون النِّساء، لقد كان كابوسًا، ولكنَّه لَمْ يتوقف عند ذلك الحدِّ، فقد اتَّجه الرِّجال تجاه بيوت كبار المدينة، وكان بيت (أورلاند) مدير المدرسة هو الأقرب لهم.

كان (أورلاند) مِنَ الفارين، ذهب ركضًا إلى بيته غير عابئ بمظهره أمام العيان، وتلك كانت أوَّل مرةٍ يتنازل فيها عَنْ وقاره أمام النَّاس، في حين أَنَّ هذا الطَّريق الرَّمليُّ الجافُّ قد شهد أيامًا وأيام مِنَ العزِّ والتَّعالي في المشية والحديث، وها قد أبى الزَّمان للحال الاستمرار، وحان الوقت الَّذي لا يرى المرء فيه إلَّا نفسه وكأنَّها شتاتٌ وجب جمعها، وإخفاؤها، والخوف عليها، حتَّى ولو كتبت له النَّجاة، هذا اليوم سيأخذ معه الكثير، وما غير النَّدم شفيعٌ قد يؤدي «إن صحَّت النَّجاة» إلى الغفران العام، رغم أنَّه غير كافٍ لتعديل الكفَّة، اقتحم البيت شاردًا، وقام بإبعاد زوجته الباكية وطفليه عَنْ طريقه، لَمْ يكن يراهم بقدر رؤيته لتحت السَّرير كمكانٍ للاختباء.

بعد تلك السَّنوات الطُّوال مِنَ العلم وتمريره، حسب متمنيًا أَنَّ ذلك المكان لن تطأة قدم (جيكل بويز)، ولكِنْ سرعان ما اقتحموا البيت ووصلوا إليه، وتأكَّدوا بالطبع أنَّه لن يستطيع الخروج أبدًا مِنْ هناك.

أمَّا (صديق) فكان على درايةٍ بالأمور، فذلك المحنَّك قضى عمره في مداعبة الوحوش ذات الأيادي المرتفعة، فكان يراقب النُّجوم بحثًا عَنْ أكثرهم لمعانًا، أو حتَّى كان أقرب تجَّار السِّلع في متابعة الأسعار، وصل ذلك الشَّقيُّ إلى الحقيقة مسبَّقًا، أَنَّ السَّاقي أهمُّ مِنَ البستان، دخل إلى بيته مرتعدًا مِنْ كثرة ما رآه مِنْ مفاجآتٍ في تلك الأيام القليلة الماضية، كان مشهدًا

منهكًا، بدا على وجهه الذُّبول، والرَّغبة في القيء، فبادرته زوجته باكيةً قلقةً مِنَ القدر المحفوف بالمخاطر، ولكنَّه سريعًا ما طمأنها قائلًا:

– هؤلاء رعاة بقرٍ، مجرمون قطَّاع طرقٍ، لا يفهمون معنى الكلم، لن يؤذونا فالسَّاقي أهمُّ مِنَ البستان.

فقالت باكيةً، والغضب جليٌّ في عينيها:

– لعنك الله!... لعنك الله على هذه الحياة!... اخرج لمواجهتهم علَّك تكفِّر!

فصرخ في وجهها قائلًا:

– أتطلبين مني الموت؟! مِنْ أجل مَنْ؟! مِنْ أجل مَنْ يجب أَنْ أموت؟!

وبالفعل دخلوا البيت مقتحمين، وحصلوا عليه دون أن يمسَّ أحدٌ الخطر، وفي النِّهاية، كانت الفريسة الكبيرة، السِّلاح الشَّرس، ونبتة الصَّبار العنيدة، أو زجاجة النَّبيذ العتيقة... (الشريف)، الَّذي كان يعرف كلَّ ذلك، كان يمقتهم لسببٍ قويٍّ، فقد كان يشتم رأحة الخبث مثلما كان يفعل والده، ولكنَّه لَمْ يكن أبدًا بتلك القوَّة الَّتي تؤهِّله لأَنْ يسير خلفها، دخل إلى البيت راكضًا، صرخ في الفضاء يقول:

– (توماس)! أين أنت؟!

فهرول إليه (توماس) مِنْ الطَّابق الثَّاني، فصرخ الأب فيه مرتعبًا:

– غادر!... غادر المدينة اتجه إلى أيِّ جبلٍ مِنَ الجبال! غادر إلى أيِّ مكانٍ!

ففزع الصَّبيُّ مِنْ لكنة والده الخائفة، فسأل بجديةٍ:

– ماذا هناك؟!

فقال (الشريف)، بينما كان يجهز مسدَّسه:

– لقد اجتاحوا المدينة، لقد قتلوا كلَّ شخصٍ، واقتحموا كلَّ بيتٍ، حتَّى الفقراء لَمْ يتركوهم.

وصرخ:

– اهرب!... خذ زادًا واهرب!

استدرك شيئًا مهمًا، وضع الطَّلقات في المسدَّس (المكسيكيِّ)، أعطاه لابنه، وقال:

– خذه، واهرب... هيا بسرعةٍ.

فقال (توماس) متفاجئًا:

– وماذا عنك؟!

– سيأتون إليّ حالًا وعليَّ انتظارهم.

– سيقتلونك!... يجب عليك الهرب معي!

فقال مبتسمًا مِنْ خلف الضِّيق، والخوف، واقتراب النِّهاية:

– علَّ موتي يكون تكفيرًا بالنِّسبة لك، علَّك تشعر بأنَّك ابن (شريف) بحقٍّ.

فاقشعرَّ بدن الصَّبيِّ، ودغدغت عينيه الدُّموع، وقال:

– هل ستقابلهم أعزلًا؟

فأومأ برأسه بنعم، وصاح:

– والآن غادر!

ضربه في صدره، فلم يلقى الصَّبيُّ سبيلًا إلَّا الهرب، عندما سمع صراخ البيوت مِنْ حوله، وفي تلك اللَّحظة حرَّك (الشريف) كرسيَّ مكتبه، وضعه أمام صورة والده، وابتسم قائلًا:

- كما كنت تتوقَّع تمامًا يا والدي.
- ليسوا مجرَّد (روبن هود) يحلمون بنصرة الفقراء، أو الحقِّ، وإنَّما هم مجرمون نخجل نحن الطَّبقيُّون والفاسدون بأَنْ نكون مثلهم، ولكِـــنْ أتعلم شيئًا...

قال بينما سمع صوت اقتحام الرِّجال لبيته:

- إنَّها عدالةٌ مِنْ نوعٍ ما، تلك المدينة الفاض، كانت تحتاج لذل.

فارق الحياة عندما اخترقت الرَّصَّاصة قلبه، ومع موته انتهى الكابوس، وانتهت أسطورة المدينة الفاضلة، مدينة (هوجو).

* * *

رعاة البقر، أو رجال البقر، هو رمز الغرب الأمريكيِّ القديم، والمعـــروف أيضًا (بالتخوم الأمريكيَّة)، وينادى به القرويون، الَّذين يعملون على رعاية الأبقار والماشية

ويفضل بعض النَّاس مناداتهم بـــ(أحمر القفا) لطبيعة عملهم تحت الشَّمس.

* * *

الفصل السابع

ماضيان

كان طفلًا صغيرًا ملائكيًا لا يعي غير مفهومين فقط، الأمان والخوف، وكان يستنبطهما مِنْ ملامح أبويه، وما دون ذلك لا يقوى على تغيّر حالته المزاجيَّة، وكطفلٍ كان لا يميِّز بين الخير والشَّر، وبطبيعة الحال، كان يرى أنَّهما لا يفعلان إلَّا الخير، حتَّى في تلك الأيَّام الَّتي كان يُعاقب فيها رجلٌ مِنْ رجال العُصبة، كانت تحمله بينما كانت تتحدَّث مع (جيكل)، والده.

– هل تبعد تلك الأرض كثيرًا عَنْ موطننا؟

كان كلُّ واحدٍ منهما ممتطيًا حصانًا، وكان وجيههما ملثمًا بوشاحٍ صوفيٍّ يمنع مرور الأتربة إلى أنفيهما، فقال الرَّجل بصوتٍ فظٍّ غليظٍ:

– أيُّ موطنٍ؟ أتسمين المكوث في إستبلٍ موطنًا؟

فشعرت بقليلٍ مِنَ التَّوجُّس، فذلك الرَّدُّ لا يحمل غير التَّطلُّع إلى تلك الأرض، وقالت:

– ما مقصدك؟

فأنزل الوشاح ناظرًا إليها بطرف عينه، وقال باسمًا:

– تلك الأرض ملكٌ لنا منذ (حمى الأرض)، لقد شُردنا منها بالقوَّة وها نحن عائدون إليها، فابتهجي قليلًا، وإلَّا أمرت بإرجاعك.

قالها فلاذت عينيهما الفرار، وعادت سريعًا للاهتمام بطفلها بعد أَنْ تسلَّل الخوف إلى قلبها وكاد أَنْ ينفرط، بينما علقت الجملة في عقل الطِّفل الصَّغير، تلك الأرض ملكٌ لنا.

* * *

بلغ أشدَّه وأتته التَّمارين والأعمال بالقوَّة المطلوبة، ولكن ظلَّ الطِّفل الصَّغير طفلًا، يبحث ويراقب كلَّ التحركات، والأوامر الَّتي يفتعلها والده،

في حين أَنَّ الأخير قد وصل إلى درجةٍ غريبةٍ مِنَ الجنون، وفي يومٍ كان الصَّبيُّ يرضخ الحديد الموضوع بين مطرقةٍ وسندانٍ، سمع والده يصـــرخ في أحـــد رجاله قائلًا:

– أعدُّوا العدَّة، لن ينفع الحديث بعد الآن، آتوني بجثَّة (ميليك) ذلـــك الثَّرثار الكاذب.

فترك المطرقة فوق السَّندان، تحرك لداخل الإسطبل، وعندما رآه والـــده، قال:

– لِمَّ تركت عملك يا (هنري)؟ عد إليه وإلَّا ضربتك.

فتألَّم قليلًا واكفهرت ملامح وجهه، ولكِنْ ليس بفعل الكلمة الأخيرة بقدر ما تألَّم مِنْ حالته الَّتي بدا عليها، طلب الحديث فسمح له بالتَّحدُّث، فقال:

– لا عليك بتلك الأرض، هناك مئات الأراضي ويمكننا السطو علـــى واحدةٍ.

فتحرك الرَّجل مِنْ مكانه، بادر الصَّبيَّ بركلةٍ جعلته يسقط أرضًا يتأوَّه، وقال بحدَّةٍ:

– تلك الأرض ملكٌ لنا!، لا تقبل الهزيمة أيُّها الجبان!، وهيا انهض وعد إلى عملك!

فسريعًا ما تحرَّك الصَّبيُّ مِنْ موضعه في ألمٍ بالغٍ، وعاد ليلين الحديد بين المطرقة والسَّندان.

* * *

شبَّ، ومرَّ في تلك الفترة بليلةٍ مظلمةٍ، كان الضَّوء فيها نارًا مشتعلةً في حطبٍ، علم فيها موت والده على يد (ميليك)، وهزيمة (جيكل بويز) شرَّ هزيمةٍ، وبعد أيَّامٍ مِنَ البكاء والأنين عين «على صغره» (رأس الأفعى) الجديد، كما كانوا يلقبون قادتهم... ومع الأمر، تعلَّم بالضَّرورة إطلاق الرَّصاص، الخبث، الكذب، والسَّطو، أصبح مجرمًا بدافع الألم والانتقام، ولا ينكر محاولته في ليالٍ قليلةٍ بأَنْ يكون مسالمًا كما فُطر صغيرًا، ولكِنْ أبدًا ما تركته التُّربة ينعم بالماء الطَّهور، وسرعان ما امتلأ عقله بالحقيقة الأصيلة، أنَّه منتقم منذ اللَّيلة الأولى له في العالم، وأَنَّ الإسطبل لن يكون كافيًا لأحلامه وطموحاته، فتعهد ألَّا يقبل الهزيمة، وفي نفس الوقت، تعهَّد على تغيِّر الطَّريقة، وإِنْ كان الأصل مجرمين، فيجب للجريمة أَنْ تظلَّ ساكنةً إلى أَنْ يحين وقتها المناسب.

كبر وعلم ما يملك وما يفتقر إليه، فأراد أن يغطِّي الأمور كلها علمَ، فغاب برجاله سنواتٍ، وعاد إلى الأبواب قويًا ذا بأسٍ، وقد مرَّت الأيَّام، وها هو يتذكرها بينما كان جالسًا أمام أحد بيوت (هوجو) السُّفليَّة، والَّذي كان آخر البيوت الَّتي لَمْ تشتعل، كان معلقًا بجانبه لالفتةٌ خضراء كتب عليها (روز للأعمال اليدويَّة)، خرج الرِّجال مِنْ البيت بعد أَنْ أشعلوا النَّار فيه، قالوا لزعيمهم:

- أيُّ أوامر أخرى يا زعيم؟
- هل أنهيتم كلَّ البيوت السُّفليَّة؟
- نعم... هذا كان آخرهم.
- إذًا هيا بنا إلى السَّاحة.

قال (أورلاند):

- اليوم سنتحدَّث عن واقع مدينة (هوجو)، عَنِ الأمور الَّتي تعكِّر صفو التَّقدُّم والرُّقيِّ.

نظر مِنْ أعلى نظَّارته إلى الفتى الجالس بمفرده في آخر مقعدٍ في الصَّفِّ، وقال:

- الجريمة... الأناس الَّذين يسعون للقتل، والسَّرقة.

فاهتزَّ الفتى، واشتعل خجلًا عندما التفت به الأنظار، وعندما شعر بما لا يستطيع تحمُّله، فرفع يده طالبًا مِنَ المعلِّم الانسحاب، ولَكِنْ سريعًا ما طلب منه الوقوف، فتوقَّف الفتى مضطربًا في عجزٍ شديدٍ، بينما كان يتمنَّى الموت قبل بدء الحديث.

- هذا الفتى الماثل أمامكم، والده كان مجرمًا شديد البأس، لَمْ ينفك عن القتل، والسَّرقة، والظُّلم، نحن بالطَّبع نعلم مَنْ يكون والده، ونحمد الخالق على وفاته.

فتمتم الصِّبيَّة جميعًا بالإيجابِ، ماعدا فتاةً واحدةً، فلاحظ المعلِّم ذلك، فتابع غير عابئٍ للظَّرف المؤقت، ولأنَّها مِنْ فقراء (هوجو).

- أنت يا فتى، لا أهتم بمعرفة اسمك وهذا نابعٌ مِنْ كرهيٍّ لوجودك هنا، وكيف لا أكرهك، وأنت جزءٌ مِنْ ذلك المجرم.

فقال الفتى بصوتٍ مبحوحٍ، وبوجنتين حمراوتين:

- أنا أعيش وحديًّ منذ أَنْ كنت طفلًا.

فهدأت الأصوات المعبِّرة، وتحوَّلت إلى آذانٍ صاغيةٍ، وبالطَّبع هذا ما أصاب المعلِّم بقليلٍ مِنْ الخجل، فردَّ مترعجًا:

- هنا ابن الكريم يصبح كريمًا، أمَّا ابن المجرم يصيِّر مجرمًا، لو كنت حقًّا أملك حقَّ رفدِك لرفدْتُك.

دقَّ جرس الخروج، ومعه انتهى نصف اليوم الدراسيِّ، أو كما هو معهودٌ، انتهى نصف التَّوبيخ المتكرِّر، لَمْ يكن اجتماعيًا بالقدر الَّذي يتيح له التَّحدُّث مع الآخرين في وقت الرَّاحة بين الحصص، أو أنَّه كان اجتماعيًا بقدر ابتعاد النَّاس عنه، ولهذا كان يجلس وحيدًا في الفناء ينظر إلى أيِّ شيءٍ على الأرض في انكسارٍ، ووحدةٍ دون النَّظر إلى الأولاد، خوفًا وخشيةً مِنْ أَنْ يرى العيون الثَّاقبة الَّتي تُعَرِّيهِ مِنْ إنسانيَّته.

اقتربت مِنْ مكان جلوسه، حيث كان جالسًا ينظر إلى بقعة مياهٍ على الأرض، كان يتمنَّى لو كان غارقًا فيها في تلك اللَّحظة، وفي كلِّ لحظةٍ، ولكنَّها مع قدومها أعادته مِنْ شروده إلى كيانه، قالت بحنانٍ مشاكسٍ:

- هل تتابع حركات النَّمل؟

فرفع رأسه ناظرًا بجمودٍ إلى القائلة، فتابعت عندما أطال في نظرته دون الرَّدِّ:

- لِمَّ أنت صامتٌ هكذا؟

لكزَّته في كتفه، فلم يهتزَّ قدر أنملةٍ، فتابعت:

- أتعلم، أنت تشعرني بالاشمئزاز، نظراتك وضعفك وصمتك الدَّائم.

فأعاد نظره إلى الأرض مجدَّدًا، فقالت مترعجةً:

- لا، أنا لا أقول ذلك لتبتعد، أنا أقوله لتتحدَّث.

فقال بصوتٍ باردٍ خفيضٍ:

- ماذا تريدين؟

فأصابتها الصَّاعقة مِنْ جموده ذلك، فقالت:

- أنا أدعى (سليسيا).

فقال:

- أعلم، أنتِ زميلتنا.

فقالت ضاحكةً:

- إذًا أنت تعرِّفني.

وتابعت:

- إذًا أنت تحبُّني.

فتفاجأ مِنْ جرأتها، ممَّا جعل احمرار وجهه يصبح جليًّا، لدرجةٍ قد تُخيَلُ لك إمكانيَّة الطَّهي عليه، فقالت بنبرةٍ جادَّةٍ:

- أنا أمزح فقط.

وقالت بعد وهلة تفكيرٍ:

- تعال سأعرِّفك على أصدقاءٍ.

أخذته مِنْ يده، وسارت به بين الصِّبيَّة غير عابئةٍ بحديثهم الجانبيِّ، والَّذي لَمْ يخرج أبدًا عن:

- هل جنت؟! إنَّه ابن المجرم الكبير هنا، ألا يجب علينا نبذه؟!

وقفت بعد قليلٍ مِنَ السَّير أمام عدَّدٍ مِنَ الصِّبيَّة، قالت في صياحٍ:

- هذا (أركان) يا شباب، جعلته يتحدَّث أخيرًا.

فنظر الفتيَّة إليه بضيِّقٍ وتعجُّبٍ، ماعدا واحدًا منهم، اقترب منه، مدَّ يده قائلًا:

- أنا أُدعى (الشريف)، مرحبًا بك يا (أركان).

فاقتتله الأمرُّ، وأخذه الفكر نحو:

- هل حقًّا ابن (ميليك) يريد أَنْ يصافح ابن (بيلي ذا كيد)؟! أمـــام العيان؟! غير عابئ بالأمر!

ابتسم بعد ضيقٍ، وصافحه ببهجة طفلٍ شاردٍ وجد ضالَّته، وبعد لحظاتٍ قال (الشريف):

- تشرَّفت بلقائك.

وفي تلك اللَّحظة صمت الجميع، وتحدَّثت دقَّات القلوب بين الثَّلاثة، ونظرات جميع الطُّلاَّب، كانت أوَّل مرةٍ له يحدث شخصًا غريبًا بكـــلامٍ لا يدور نحو الدفاع عَنِ النَّفس، أو رفع البأس، أو ترجِّي الرَّحمة، بل كانت المرَّة الأولى الَّتي يتقبَّله أحدهم، فقط بمجرَّد وقوفه.

لقد شعر بشيءٍ مِنَ الإنصاف، عندما أتت تلك الجميلـــة وجعلتـــه يصافح (الشريف)، جعلته يدرك، ولو لوهلةٍ أَنَّ الحياة يمكن أَنْ تعـــاش، أو أنَّها جعلته يدرك أَنْ لَمْ يكن يعيش على النَّحو الصَّحيح، والمنهاج السَّليم، شعر أنَّه يطير في الهواء بينما كان ممسِّكًا بيد (الشريف) وسط أنظار العيان نعم، كان يطير في الهواء، حيث التَّجرُّد مِنْ كلِّ شيءٍ كـــان قـــد أهانـــه، (سيليسيا) دخلت حياته لمدَّةِ دقائق، وتلك الدَّقائق أصبحت مع الوقت هي الذِّكرى الوحيدة الملوَّنة وسط شريطٍ أسود وأبيض، ومنذ تلك اللَّحظـــة، تغلغل حبُّ (هوجو) في قلبه، وأغلق عليه الباب.

الطُّيور الحزينة تستطيع الغناء، مثلها مثل باقي الطُّيور، بل إنَّها عندما تغني يصبح غناؤها الأفضل، الأقرب للقلب، والأرهف على المشاعر، أقلُّ ما يتمنَّاه المرء هو رؤية صغير الاهتمام، ليس السير بين قرني الأرض، وإنَّمـــا الشعور ببعض الحياة، هذا هو طيُّ الأمر، ونشره، وهذا ما رآه مِنْ بـــادرة

(سيليسيا)، ومِنْ تقبل (الشريف) لوجوده، نسيَّ الحزن لوهلةٍ، واشتاق للغد الأفضل، ولكِنَّ ذلك الأشتياق كان تحت ناظريِّ (أورلاند)، إذ كان واقفًا يراقبهم ويشتاط غيظًا، في الحقيقة، (أورلاند) لَمْ يكن شخصًا بغيضًا في حياته العامَّة، بل على النَّقيض تمامًا، كان نبيلًا بصورةٍ ما، نبيلًا مع الأغنياء، ولا يطيق تلطيخهم بأيدي الفقراء، وأفكارهم، ولهذا كان هذا آخر يومٍ (لأركان) في المدرسة، إذ جاءه أمرٌ مِنَ العمدة بإعفاءه مِنْ أعمال الدِّراسة بحجَّة أنَّه يدعو للجريمة مثلما كان يفعل والده، وكان ليل هذا اليوم القشَّة الَّتي قسمت ظهر البعير، لقد شعرَّ بالتَّعب، التَّعب البالغ، فظنَّ أنَّه بحاجةٍ إلى النَّوم، ولكنَّه سريعًا بعد نومه أدرك أَنَّ الأمر أكثر مِنْ ذلك بكثيرٍ.

فعندما تكون جليسًا لسجنٍ ما، وتعتاد على قدوم الحارس بربع تفَّاحةٍ كغذاءٍ لك في وقتٍ مِنَ اليوم، ومع مرور الأيَّام ستعتقد أَنَّ الرُّبع تفَّاحةٍ نعيمٌ بشكلٍ أو بآخر، إنْ لم يكن سقف النَّعيم، ولكن عندما تجد مفرًا يقودك إلى المطبخ في يومٍ مِنَ الأيَّام، وعندما تجد صندوقًا مِنَ التُّفَّاح هناك، وتنهال عليه بطمعٍ مبالغٍ فيه، لن تكفيك في اليوم التَّالي الرُّبع تفَّاحةٍ، وهذا ما حدث مع (أركان)، إذ في يومٍ حصل على قدرٍ أعلى مما كان يملكه من التُّفَّاح، ولكنَّه، في نفس اليوم وجد أنَّه معاقبٌ منه تمامًا.

قرَّر الذَّهاب (للشريف ميليك)، وينما كان في الطَّريق استنبط مِنَ النَّاس وحديثهم أَنَّ النَّبذ لم يكن مِنَ المدرسة فقط، أو في عقول البشر البسطاء، وإنَّما، أصبح قرارًا عامًا، وصل إليه، وطلب منه الرحمة، فحدث ما حدث.

– خذ زادًا واهرب... خذ زادًا واهرب.

- ولكن إلى أين؟!
- إلى أيِّ مكانٍ، أنا لن أستطيع مساعدتك، تلك أوامر العمدة، وليست أوامري.

فغادر المكان مظلومًا، لا يعلم وجهةً، أو وطنًا، وتعيَّن عليه البحث عَنْ ملاذٍ آمن، مؤكَّدٌ لَمْ يجد سوى المضيِّ قدمًا نحو أحد الجبال، بزاد الوحدة، والبؤس، كحلقةٍ في جزيرٍ قد ربط بقفلٍ يُوصِدُ صندوقًا أسود، لسفينةٍ غرقت منسيَّةً في أعماق المحيط، ومضت الأيَّام، وها هو يتذكَّرها بينما كان في طريق ذهابه المعتاد إلى بيت (روز)، ولكنَّه سريعًا ما عاد مِنْ شروده عندما رآى البيت مشتعلًا، فجثا على ركبتيه وبكى.

* * *

في عام (1889م) افتتحت واشنطن (8100 كم مربع) مِنَ المساحات الغير مأهولة في (أوكلاهوما)، وهذا الأمر الَّذي استدعى (مائة ألف) شخصٍ مِنْ رعاة البقر، وغيرهم مِنْ الأمريكيِّين الأصليِّين ليقفوا على أبواب المنطقة، وعندما قرعت الطُّبول بدأ السِّباق، وحصل كلُّ فردٍ على ما استطاع مِنَ الأرض، وذلك عرف فيما بعد بـ(حمى الأرض).

* * *

الفصل الثامن

تـيــه

«اهرب... خذ زادًا واهرب...»

كان البكاء مِنْ عيونٍ لَمْ تغفل للحظةٍ، والأنين مِنْ قلبٍ أصابه صدعٌ لا يندمل أبدًا، والعرق مِنْ جسدٍ لم يسكن لفترةٍ طويلةٍ، أخذ يركض متجهًا إلى قمة الجبل الشَّماليِّ، والَّذي كان قريبًا مِنْ بيته القديم، الَّذي احترق أمام عينيه، وبالتَّأكيدِ لا داعٍ لرؤية ما إنْ كان قد قتلوا أباه أم تركُّوه، فنظرته، وأوامره، ومشهد البيت المحترق، كانوا جميعًا كافيين للتَّأكُّد، وأيضًا المضيِّ قدمًا تجاه المجهول.

* * *

اقشعرَّ بدن الصَّبيِّ، ودغدغت عينيِّه الدُّموع، وقال:

– هل ستقابلهم أعزلًا؟

فأومأ برأسه بنعم، وصاح:

– والآن!... غادر!

* * *

تعرقل في صخرةٍ صلبةٍ فسقط على وجهه بشدَّةٍ، فلم يقم مِنْ مكانه، واكتفى فقط بإغماض عينيِّه والبكاء، بينما كان سيلُ الذِّكريات يمرُّ مِنْ أمامه.

* * *

فقال مبتسمًا مِنْ خلف الضِّيق والخوف واقتراب النِّهاية:

– علَّ موتي يكون تكفيرًا بالنِّسبة لك، علَّك تشعر بأنَّك ابن (شريف) بحقٍّ.

* * *

نعم أنا ابن (الشريف)، ولَمْ أكن أريد تلك التَّضحية لأَنْ أتأكَّد مِنْ ذلك، فما الفائدة مِنْ هذا الآن؟ كيف لهؤلاء القوم أَنْ يقتلوا كلَّ شخصٍ بتلك الكيفيَّة؟ لَمَّ حتَّى قتلوا الفقراء؟! إنَّني أمقت العنصريَّة، ومَنْ يتبعها، ولقد كنت أشعر في كلِّ يومٍ بوجوب التَّغيير، وتحقيق العدل، ولكنَّني لَمْ أتمنَّى أبدًا موت الجميع، إنَّهم ليسوا بهذا الظُّلم، ولا يستحقُّون أبدًا ذلك العذاب.

نعم إنَّ العقاب واجبٌ للمخطئ، حرصًا لأَنْ يتعلَّم مِنْ خطأه في الحياة، لكي يستمرَّ متذكِّرًا ومتعايشًا مع الحقيقة، ولَكِنْ أن يموت؟ فما الفائدة إذًا مِنَ الغد؟ ما الفائدة مِنْ إنتظار الأمل؟ في السَّابق كرهت (هوجو)، ولكنَّني الآن أكره (جيكل بوي)، هؤلاء مَنْ يستحقُّون العقاب، وليس هؤلاء.

أين عليَّ أن أذهب؟

لا أعلم... لا أعلم.

وراح في نومٍ عميقٍ.

* * *

كانت تمطِّر، إذ تجمع السَّحاب سريعًا فوق سماء (هوجو) المنتكسة، وأخذ يطفيء ما بقي من نيرانٍ مشتعلةٍ في المباني ذات الدَّورين وتلك ذات الدَّور الواحد، وكان القمر مُطلعًا على كلِّ ذلك كبدرٍ كاملٍ، وأمَّا النَّسيم؟ فكان نسيمًا باردًا تقشعرُّ له الأبدان، وتذوب الخواطر في ما تمتلئ به القلوب مِنْ أحزانٍ، لقد كان وقتًا مثل تلك الأوقات الَّتي يحتضنك فيها اللَّيل، يربِّت على كتفك، ويخبرك بأَنَّ هناك أملًا ما، بأَنَّ هناك دواءً لسقمك، بأَنَّ جروحك ستطيب، وسيمرُّ الحزن، رغم عجزك، وحرمانك.

استيقظ مِنْ ثباته عندما ابتلَّ وجهه، فلاحظ أنَّه قد استغرق في نومٍ عميقٍ، لَمْ يستغرق مثله منذ أَنْ كان طفلًا صغيرًا منهمكًا مِنْ كثرة اللَّعب، نهض وانتبه لغطاءٍ ثقيلٍ كان قد وضع عليه منذ ليلة البارحة، فلامس قلبه فضولٌ ما، فأخذ ينظر حوله بتأنٍ شديدٍ، وبرغبةٍ ملحةٍ، وكان كلُّ ما يجوب خلده هو «مَنْ قام بذلك؟»، أو «لِمَّ يقوم أحدهم بفعل ذلك مع غريبٍ مثلي؟» لَمْ تلحظ عيناه أيَّ جديدٍ حوله، فابتلع فضوله، وقرَّر البحث عَنْ أيِّ شيءٍ ليأكله، فأخرج مسدَّسه، اطمأنَّ على الطَّلقات، ولكنَّه تَذكَّر أنَّه لَمْ يتعلَّم أَنْ يُردي شيئًا بالرَّصاص، أو حتَّى لَمْ يرى والده يفعل ذلك، وكانت حجَّته هي «ألَّا داعٍ لذلك، كلُّ الأمور يمكن حلُّها بدون الحاجة إلى العنف.»

ابتسم منكسراً عندما تَذكَّر عنده، وضع المسدَّس في جيبه، وأخذ يسير هائمًا على وجهه باتجاه قمة الجبل، دون وجهةٍ، دون هدايةٍ، كجرمٍ صغيرٍ يسبح في فضاء هذا الكون الواسع، تحرك شعره مِنْ ثباته، فتدلَّل على جبهته عندما ابتلَّ، فابتسم مرَّةً أخرى من تلك التَّجربة الَّتي يخوضها، والَّتي لَمْ يكن أبدًا يتوقَّع أَنْ يخوضها، فذكره عقله بشيءٍ ما... (أركان)، هل خاض هذا الطَّريق عندما كان في مثل عمري؟ وحيدًا مقهورًا يسير هادئًا بينما يريد بصق قلبه من كثرة الظُّلم الَّذي تعرض له؟ بالطَّبع قد مرَّ بهذه التَّجربة، وها هو العدل يا (أركان).

وفجأةً، وبينما كان يتفحَّص ظنونه، لاحظ وجود حريقٍ هائلٍ أعلى الجبل، فاتَّجه نحوه راكضًا.

* * *

الفصل التاسع
أركان

أركان... ذلك الجبل القويُّ طولًا، وعرضًا، وارتفاعًا، ذو الملامح الشَّرقيَّة الشَّديدة، والنَّظرة الباردة العنيدة، والَّتي لا تخرج أبدًا إلَّا مِنْ قاتلٍ لا يعرف الرَّحمة، ولا تعنِّيه في شيءٍ، كان قد أَلِفَ بيته، ذلك المضجع الضَّيق، والَّذي كان يشبه دنياه وصدره، كان ضيقًا للغاية، يشوب جوُّه الكآبة، وقلَّما دخله الضَّوء، لقد كان مضجعًا للحزن أكثر منه للفرح، ولكنَّه برغم كلِّ ذلك، كان دائم البحث عن الضَّوء في داخله، واليوم، وفي تلك السَّاعة انكسر قِنديلُ المصباح على الحصير، عندما ارتطم به ذئبٌ دخيلٌ، ومعه أحد الغزلان، والَّذي بغى رفاهية تناول الطَّعام تحت سقفٍ يحميه مِنَ المطر، وبالطَّبع لم يكن (أركان) هنا، لأنَّه «ولسببٍ ما أراد ترك غطاءٍ» على جسد الصَّبيِّ الَّذي التَّقاه صِدفةً عندما كان عائدًا من جولةٍ حزينةٍ ومتطلعًا للرَّدِّ بقوَّةٍ.

شعر بالغضب في بادىءِ الأمر، ليس لكون كُلِّ شيءٍ تحوَّل إلى رماد، ولا لسبب تفحُّم غزلانه، ولكن كان السَّبب هو تأكُّده مِنْ قدوم ذلك الفتى الَّذي بدت عليه الجرأة، إذ اقترب مِنَ البيت ووقف أمام الباب مباشرةً ينظر إلى كلِّ تفصيلةٍ محروقةٍ.

حدَث ما حدَث، واهتديا إلى بعضهما البعض، وحدَث اللِّقاء، لقاءٌ بين الماضي والحاضر، بين اثنين قد خاضا وديَّان الحزن خوضًا، وجرعا شقاء الخزي جرعًا، ولبسا طويلًا رداء الأمل طمعًا في غدٍ أفضلٍ، ولهذا ساد الصَّمت للحظاتٍ قد أثبت فيها للاثنين أَنَّ اللِّقاء محتومٌ منذ أَنْ خلقا، وأَنَّ تلك الرَّهبة الحاضرة ما هي إلَّا ضمانٍ لها.

كان ينظر إليه بفضولٍ كبيرٍ، كان يتفحَّصه ويملي عينيه منه، أهذا هو (أركان)؟ أهذا هو المنبوذ أبديًا؟ الغير منتمي أزليًا؟ الَّذي «بحجم توقعات الكون بما فيه» نبت في تربة الأنين، وسقي البكاء سقيًا؟ أمَّا الآخر فقد ثبت في مكانه ينظر إلى الأرض في تلعثمٍ شديدٍ، فلا يدري ماذا يفعل، وهو الأعلم بأَنَّ ذلك الفتى هنا ليستعين به على العودة، أَنْ وجده ركنًا لتيَّهٍ وبؤسٍ.

– هل أنت (أركان)؟

قالها الفتى بطيب نفسٍ، فلم يردَّ الآخر، فقال الفتى مجددًا:

– هل أنت (أركان)؟

تلك كانت بنبرة تمنٍ وحسرةٍ، وأيضًا لم يجد (أركان) في الرَّدِّ سبيلًا، فقال الفتى:

– شكرًا لك على الغطاء، وقاني، وبدونه لكنت الآن مصابًا بزكامٍ شديدٍ.

فجثا (أركان) على ركبتيه يحمل شتات الحريق، فتحرَّك الصَّبيُّ يساعده، فصاح فيه غاضبًا دون حتَّى مباشرته بنظرة:

– لا!

فتجمد الفتى خوفًا في مكانه عندما أدرك صلب شخصيَّته مِنْ نبرة صوته الخشنة، وتحرَّك للخلف بضع (سنتيمترات)، فقال (أركان) بهدوءٍ:

– إلى أين ستذهب؟

فقال الصَّبيُّ عندما أدرك أَنَّ هناك شقًا في الجبل:

– لِمَ أعطيتني الغطاء؟

وقال مستدركًا:

– لِمَّ حتَّى حميتني؟

فقال (أركان):

– أسئلةٌ أسئلةٌ!... لِمَّ لَمْ يقتلوك هؤلاء!

ثمَّ باشره بنظرةٍ جامدةٍ مخيفةٍ، فوسعت عينا الصَّبيِّ، وتعرق جسده كمن أصيب (بالتيفود)، فضلًا عَنْ ضجيج أحشائه المسموع، فتابع (أركان):

– لِمَّ لَمْ آتِ بك إلى هنا؟

فأدرك الصَّبيُّ حقيقةً ما، فأخذ يتحرَّك تحت ناظريه إلى الخلف، فقال (أركان):

– لِمَّ أعطيتك الغطاء؟

فابتسم الصَّبيُّ حائرًا خجلًا عندما لَمْ يجد شيئًا ليفعله، فقال (أركان) بينما كان ينهي جمعه للأشياء:

– أعلمت أَنَّ الأسئلة الكثيرة قد تثير الحيرة؟

ثمَّ قال مارًا مِنْ جانبه:

– ستبيت هنا اللَّيلة يا ابن (الشريف).

وغادر البيت، تاركًا الصَّبيَّ في حيرةٍ جمةٍ.

* * *

"صلبٌ كالصخر، رجلٌ ذو ماضٍ"

هكذا رآه الفتى، وهكذا توقَّعه، فهو ذا الَّذي وقف أمام والده يومًا يصيح فيه غضبًا، عندما أدرك خطيئةً ما، فكيف بمن ذاق مرارة الوحدة ذوقًا؟ لم يستطع النَّوم على الأرض الخشبيَّة الصُّلبة على أضلعه والَّتي كانت

قد اعتادت فراش النَّعام المريح، فقرَّر الخروج مِنَ البيت، وعندما خرج لاحظ انشغال (أركان) بأعمال الحفر لقبور الحيوانات، فسريعًا ما أبصر (توماس) ثغرةً في دفاع الخصم، راح إليه وعرض المساعدة.

– هل لي مساعدتك؟

فلم يردَّ (أركان) كما هي العادة، فقال (توماس) عندما لاحظ مجرافًا آخر بجانب قدَمه:

– حسنًا لقد فهمتك.

أمسك بالمجراف وأخذ يساعده على الحفر، وبينما كان يحفر كانت ابتسامة سعادة عيش تجربةٍ جديدةٍ عليه تطفي بهجةً على فعله، وهو الأمر الَّذي استنكره (أركان) قائلًا:

– يا لك مِنْ مزعجٍ!

وصاح بحزمٍ:

– هذه أوَّل مرةٍ تحفر فيها!، قد دلَّلك (الشريف) كثيرًا!

فحاول توماس «دون الردِّ» إظهار القوَّة في الحفر، ولكنَّه لَمْ يكن يفهم أساسيَّاته أبدًا، فبدا وكأنَّه طفلٌ صغيرٌ يلعب في التُّراب، فقال (أركان):

– أنا لا أحبُّ العند، ولا أحبُّ تصيُّد الأخطاء، إنْ كنت لا تعرف شيئًا قل لا أعرفه.

فقال (توماس) مبتسمًا:

– أنا لا أقول لا أعرف، أنا أحاول، وأحاول حتَّى أصل.

فابتسمت عينا (أركان)، فقال الصَّبيُّ عندما لاحظ ذلك:

- سألذ هنا لبعض الوقت، فلا أستطيع المكوث دون تقديم إيجـــارٍ، اعذرني يا سيدي.

رفع من قوته، فقال (أركان) تاركًا مجرافه:

- حسنًا، احفر عشرة قبورٍ.

فقال الأخير ضاحكًا:

- حسنًا سيدي.

* * *

مرت ساعاتٌ عدةٌ، فذهب (أركان) يتفقده، فوجده قد سقط نائمًا في نصف حفرةٍ حفرها، ضحك مِنْ قلبه، وراح يحمله لداخل المنزل، وبعد أَنْ أنهى توصيل الرَّحمة، عاد إلى مكان العمل، وأخذ يكمل ما بدأه.

قال أحد الحكماء ذات مرةٍ:

" تعلَّم العزلة حتَّى ولو لبعض الوقت، احتفظ بدائرةٍ صغيرةٍ لك وحـــدك فقط، دائرةٌ لا يصلها غيرك، حيث ترى نفسك على حقيقتـــها، تـــداوي جرحًا، وتواكب تغيرًا، ولكِنْ احذر أَنْ تقتطعها مِنَ الحياة الشَّاغرة، لا ترى كل شيءٍ وهو يتحرَّك بينما تقف ساكنًا، فالعزلة الحميدة تكمن في رؤية كلِّ ما يدور حولك بطيئًا، بينما تتحرَّك أنت، وليس أَنْ تقف وتشاهد كلَّ شيءٍ وهو يسبقك".

ولكِنْ أركان أبدًا لم يكن كذلك، أو أَنَّ الحياة فرضت عليه الوحدة والعزلة، ولَمْ تكن أبدًا اختياره.

عندما كان صغيرًا كان يحطِّمه الرِّجال والأطفال الأقوياء، يكسِّرون له ضلعًا تارةً، ويقتلون فيه البهجة تاراتٍ أخرى، في المدرسة، في الشَّوارع، وحتَّى في بيته لَمْ يكن مرتاحًا، حيث كان النَّاس يتجمعون حول بيته ويلقونه بالسِّباب والتُّهم الَّتي لا تصَّنف إلَّا عنصريةً كبيرةً، وعندما نَفْذَ أوامر (ميليك) قادته الجملة إلى هنا، وبعد مرور كلِّ تلك الَّليالي، بل في كلِّ ليلةٍ مِنْ تلك اللَّيالي، كان يتساءل... " هل شفعت إليَّ وحدتي؟".

شعر بنغزةٍ في قلبه عندما تذكَّر النُّقطة الَّتي وصل إليها الصَّبيُّ في حياته، والَّتي لَمْ يكن ليصل لها إلَّا بعد إذن (أركان)، أي أنَّه قد نقض العهد الكبير، وفضح السِّر الأعظم، سيتسلَّل الصَّبيُّ إلي حياته، سيكون جزءًا منها، سيتضرر شاء أم أبى، فلا الضَّمير مستقيمٌ وأنا ابن المجرم (الشريف) في جرمه، اقتحم البيت، وصاح فيه بقوةٍ:

– يا أنت!

فتحرَّك (توماس) مِنْ مكانه بعد أَنْ استيقظ مفزوعًا مِنْ نومه، نظر إليه في فجأةٍ مِنْ أمره، فصاح (أركان) بقوةٍ ممسكًا بذراعه، جارًا به إلى الخارج:

– هيا امضي مِنْ هنا!، انسى أنَّك قابلتني!، انسى أنَّني ساعدتك!

فتعرقل الصَّبيُّ مِنْ قوَّة دفعه له، مما أدى إلى إصابته بجروحٍ بسيطةٍ، ولكِنْ لَمْ يعبأ (أركان) القاسي لذلك، إذ أخذ يجرُّه أرضًا حتَّى ابتعدا عَنْ البيت بضع خطواتٍ، ألقى به بعيدًا عنه، وقال بقسوةٍ:

– انقشع عن هنا!، ولا تأتي إليّ مجددًا!، وإنْ خُيِّلَ لي رؤيتك سأقتلك!

فهرب الصَّبيُّ زحفًا، ركضًا، مُهرولًا، حتَّى اختفى عَنْ ناظره.

* * *

" ما هذا الوحش؟! ما هذا الوحش؟! يا إلهي!"

أخذ يركض بين الأشجار والطُّرقات مِنْ فوق الجبل، وإلى أسفله، كان يبكي، كان يحترق، كان خائفًا، تداخلت أفكاره، وشعر بالتيهِ مجددًا، ولَمْ يكن يعلم أثناء ركضه إلى أين هو متجهٌ، وفجأةً، ووسط هذه العتمة اللَّيليَّة، سمع صوت مجموعةٍ مِنَ الذِّئاب، فأخذ ينظر حوله بارتيابٍ، وعلى حين غرةٍ، سقط مِنْ فوق منحدرٍ قاسٍ في حفرةٍ واسعةٍ مغطاةٍ بالأشجار، أصيب إصاباتٍ بسيطةٍ، خدوشٌ، وكسرٌ في الذِّراع الأيسر ألَمٌ هينٌ إذ اكتشف بعد سكونه بلحظاتٍ، أنَّه قد وقع في وكرٍ يسكنه ثلاثة ذئابٍ.

كانت الرُّؤية صعبةً، والمشهد يحبس الأنفاس، وما كان يسمع سوى صوت عوائهم، أصابه الخوف فأخذ يتحسَّس الأرض مِنْ جانبه، وقعت يده على هيكلين عظميين لصبيَّين كانا قد لقيَّا حتفهما مِنْ اختراق النَّابين للحمهما، ارتعش جسده عندما لامسه أحد الذِّئاب، فوضع يده على فمه لألا يصدر صوتًا، ولكنَّهم كانوا قد ميزوه، فسريعًا ما عضَّه أحدهم في قدمه اليمنى، وعضَّه آخرٌ في قدمه اليسرى، فلم يستطع كتم صراخه، فترك أسباب النَّجاة البينيَّة، وأخذ يناجي بأعلى صوته طالبًا أسباب النجاة القدريَّة.

- النَّجدة!
- فلينقذني أحدٌ!

– أبتآه!

فعضَّه آخرٌ مِنْ جانبه، ومع هذا الألم الأخير أدرك أَنَّ النَّجاة أمرٌ مستحيلٌ، وأنَّه «بعد كل ذلك» سيلقى منيَّته هنا، مُفتكًا به، مندثر الأشلاء. انسكبت الدُّموع مِنْ عينيه، وخارت مقاومته، فأخذ ينظر إلى السَّماء بينما كان يواجه الألم العظيم.

" هل سأموت هنا؟ هل هذه النِّهاية؟"

فذكره عقله بأَنَّ هناك مسدَّسًا في جيبه، أخرجه، وأطلق طلقةً في السَّماء فابتعدت الذِّئاب عنه بضع خطواتٍ، ممَّا أتاح له التَّحرك للخلف قليلًا، دفع عظام الصَّبيَّين بعيدًا، وأسند ظهره إلى الصَّخر، بلع ريقه في رعبٍ بليغٍ، أحكم قبضته على المسدَّس، وعندما رأى أحد الذِّئاب يركض نحوه أطلق عليه الرَّصاص فسقط المفترس أرضًا، ومع تلك الخطوة أدرك أنَّه قد قضى على واحدٍ مِنْ ثلاثةٍ، فصوب مسدَّسه نحو آخرٍ، ونجح في إصابته بينما كان يقفز فوقه، فسقط الذِّئب ميتًا بجانب مسدَّسه، وعندما كان أعزلًا اقترب منه الأخير، أخذ ينظر إليه بتركيزٍ خائفٍ، يتحرَّك عكس سيره، يراقب كلَّ خطواته، يراقب عينيه، ونابيه الَّذين تتساقط منهما الدِّماء، وعندما أتت لحظة المواجهة اخترقت رصاصةٌ مِنَ الأعلى رأس الذِّئب الأخير، فسقط مقتولًا.

– هل تبولت على نفسك يا صبيُّ؟

كان صوتًا مألوفًا على مسمع الصَّبيِّ الخائف، فقال الصَّوت مجددًا:

– انتظر هنا، سأسقط لك حبلًا غليظًا.

–

أنقذه ولا يعلم لماذا، فهل لأنَّه ينتظر إنقاذًا مماثلًا؟

* * *

عادا إلى البيت، وشَرع (أركان) في مداواة جروح الصَّبيِّ، والَّذي لَمْ يكن يعبأ بأي ألمٍ حارقٍ مِنْ فرط (الأدرينالين) في جسده، ومِنْ فرط تفكيره في الشَّخص القابع أمامه، (أركان).

– مَنْ أنت؟

قالها (توماس) بجفاءٍ شديدٍ، فلم يردَّ (أركان)، فقال مجددًا:

– مَنْ أنت؟ أخبرني؟

فارتفع صوته أكثر، وأكثر:

– مَنْ أنت؟

صرخ بأعلى صوته:

– مَنْ أنت؟! هل أنت خيرٌ؟! هل أنت شرِّيرٌ؟! هل أنت منبوذٌ؟! هل أنت وحيدٌ؟! هل أنت قاتلٌ مأجورٌ؟! ماذا تريد منيَّ؟! لماذا تساعدني تارةً؟! وترفضني تارةً؟! لماذا طردتنيَّ؟! لماذا أتيت لي؟!

وصرخ بأعلى صوته:

– تحدَّث معي!

فصاح (أركان) غاضبًا:

– اصمت!

فقال الصَّبيُّ:

– لن أصمت.

- اصمت.

وضربه (أركان) على وجهه بقوةٍ، فصمت.

- أنا لا أعلم من أنا.

قالها بضيقٍ، وكأَنَّ الكلمات قد انسكبت منه عن دون عازةٍ، ولكنَّه قرَّر ولو لمرة ثانية أن يترك هيبة الصمت قليلًا، ويتحدَّث كإنسانٍ أتت له فرصة البوح.

" أخذت ميثاقًا مع الحزن بألَّا أقرب لكائنٍ مَنْ كان، حتَّى لا أضرَّ أحدًا، عشت أربعين عامًا في جلدٍ للذَّات، غيرتني الأوضاع، فجعلت منِّي وحشًا هناك، وهنا كنت أنتقم مِنْ ذلك الوحش الَّذي آذاكم، ضركم، وقتلكم ولكنَّني تعبت مِنْ كثرة التعذيب، إنَّني أعتقد بأنَّني لست وحشًا كما تظنُّون، إنَّما فعلت الحياة بي ذلك، اخترت الوحدة لأبتعد عنكم، لأموت وحيدًا، وحشًا كما تظنُّون، طيفًا لا وجود له في عين نفسي"

" ضريَّ الأمر، أنا لست صامتًا لأنَّني أرغب في ذلك، وإنَّما أنا صامتٌ لفقدانيَّ القدرة على الكلام"

" أنت لا تعلم مَنْ أنا! أنت عشتني تأويلًا."

سقطت دمعةٌ مِنْ عينه.

"لقد عاشوني طول العمر تأويلًا."

"في كل ليلة أراهم، أرى وجوههم، أسمع كلماتهم، تلك المرأة الَّتي حملت ابنتها مِنْ أمامي خوفًا عليها، ذلك الرَّجل الَّذي كان يحمد الله على هروبي، لَمْ لَمْ يفكروا ولو للحظة في معانايّ؟ في أنَّني مجبرٌ على العيش مع ذكريات

ذلك السَّفَّاح؟ لَمْ لَمْ يميزوا ذلك من ملامحي؟ لَمْ حتَّى أنا الوحيد الَّذي مَيَّزتُ ملامح الكره في وجوههم؟"

"أنا أبدًا لَمْ أكن مثله، أنا أبدًا لَمْ أكن وحشًا."

– ولكنَّني أعلم بأنَّك لست وحشًا.

قالها بنبرةٍ هادئةٍ عندما لاحظ انكسار العظِيم، فتابع (أركان):

– أنت هنا للصِّدفة.

فقال الفتى:

– لا، أنت الآن مَنْ تعشني تأويلًا.

وتابع:

– أنا هنا بفعل القدر، لأقول لك شيئًا مهمًا.

قال الفتى بقوةٍ:

– ليست الحياة هناك كما تظنُّ!، لَمْ تكن أبدًا كما تظنُّ!

وقال بعد أَنْ أدرك مدى الجرم الَّذي فعله فيه جدُّه ووالده:

– المدينة الفاضلة لَمْ تكن كذلك، وحتَّى (الشريف) أيضًا لَمْ يكن كذلك.

– لقد قسوت على نفسك في عالمٍ لا يستحقُّ ذلك، عالمٌ تملأه الخطيئة منذ القدم.

فتلاقت أعينهما، فقال الصَّبيُّ:

– مهجرك جعلك ملاكًا.

- أنا الَّذي عشت حياتيَّ إلى الآن أخدع في النَّاس الأخيار، تهتزُّ صورهم على طول الطَّريق، وأنا الَّذي رأيت فيك خيرًا لَمْ أره في غيرك نبلاً، وحقًا.
- حقًا لقد جعلك مهجرك ملاكًا.
- لقد تأكَّدت فقط في هذه اللَّحظة أَنَّ الكارثة في (هوجو) قد حدثت لسببٍ ما، وهذا السَّبب كان العدل لك أنت.
- (ميليك)، (الشريف)، وحتَّى ابن (الشريف)، لَمْ نكن أبدًا بهذا الشَّرف، دموع ضميرك تلك لَمْ تبلِّل أبدًا وجهيهما أو حتَّى وجهي.

ساد الصَّمت للحظاتٍ، وعندها ارتسمت الإبتسامة على المحيا، قال براحةٍ لم يعهدها:

- إنَّني أكرهك يا فتى، أنت الشَّخص الوحيد الَّذي اطلع على ضعفي.

فقال (توماس):

- لا يمكنك التَّحكم في كلِّ شيءٍ، لا يمكنك التَّحكُّم في القدر الَّذي جمعنا هنا، قد انقلب العالم رأسًا على عقب لنجلس تلك الجلسة، عليك أَنْ تدرك أَنْ لا يمكنك حماية كلِّ شيءٍ والإغلاق عليه.

وابتسما بعد أن شعرا بالخلاص.

(أركان) قد عادت إليه الحقائق، عندما تحرَّر من قِيده الَّذي قيَّد به نفسه لسنواتٍ وسنواتٍ، فبعد سنواتٍ مِنْ جلد الذَّات، علم أنَّه لَمْ يكن شيطانًا

كما سوَّلت له نفسه، وكما صوَّرت له وحدته، وأَنَّ تلك الأخطاء الَّتي ارتكبها كانت أخطاءً بشريةً عاديةً، يخطئها المرءُ طوال الطَّريق، لقد علم أَنَّ الالتزام الأخلاقيَّ الكامل ليس إلَّا خدعةً، وأَنَّ المطلوب فقط هو معرفة طريق تصحيح الأخطاء، وليس منعها.

لقد ضاع الكثير مِنَ الوقت، ولكِنَّ تلك المحنة قد جعلته أقوى، وتلك اللَّحظة الَّتي اهتدت فيها هواجسه، قد وجهته بثقله نحو طريقٍ آخرَ مِنَ الخير، و(توماس) شعر بأنَّه صحَّح أخطاء جدِّه ووالده، بأنَّه تحرَّر مِنْ قيد الظُّلم الَّذي قُيدَ به منذ ولادته، أو قبل ذلك بقليلٍ، شعر الآن بأنَّه على الطريق الصَّحيح، وما تبقى هو إعادة كلِّ شيءٍ لمكانه الطبيعيِّ.

* * *

الفصل العاشر

مقالة

" مضت عدَّة سنواتٍ منذ ذلك اليوم، حيث قام رجـــال (جيكـــل بـــويز) الشُّرفاء بقلع الشَّجرة العجوز الفاجرة، تلك الشجرة الَّتي أصابت الرُّعونة جذورها، وأصاب السَّقم فروعها، كانت ستسقط، ولكِنَّ هؤلاء الرِّجـــال الأقوياء، والحكماء قاموا بالتَّعجيل في الأمر، وهو الأمر الَّذي أفرحنا كثيرًا، وخلق لنا فضاءً جديدًا، وأملًا في أَنَّ المستقبل سيكون شريفًا عفيفًـــا، لـــن يطمسه الطَّامعون ولا الفاسدون، إنَّ ما فعله العمدة (هنري) ورجاله كـــان لبَّ الإجادة، خلَّصونا مِنَ العنصريَّة، والتَّفرقة، هيا بنا يـــا رجـــال! لنـــبنيَّ المستقبل، ولنجعل مدينة (العمار) مدينةً حالمةً حديثةً."

تغيَّر شكله، زاد طوله، وكبِر جسده، وبرزت عضلاته، أصبح رجلًـــا تهابه الفوضى، ويهرب منه الباطل، وذلك النُّموُّ كان أمام أعين (أركـــان)، والَّذي لَمْ يكتفي فقط بتحسين قوَّته البدنيَّة، وإنَّما علمه حمـــل السِّـــلاح وإطلاق النَّار، والقتل إنْ تطلب الأمر، ففي عـــالمٍ مثـــل عـــالم (التَّخـــوم الأمريكيَّة) حتَّى وإنْ كنت طيبًا عفيفًا، عليك التَّكيُّف مـــع تلـــك التُّربـــة الخشنة، والَّتي لا تروى إلَّا بدماء الجرائم وسطوتها.

(توماس)، الَّذي كان سعيدًا بتطوره هذا، لَمْ يشتكي يومًا طـــوال ســـنوات مكوثه مِنْ فقر الرَّاحة وحياة البرِّيَّة تلك، وإنَّما كان يعيش التَّجربة كإنسانٍ جديدٍ ولد ونمى هنا.

جَرَعَ الصَّغير مِنْ (أركان) حبَّ الخير، ورفض البَاطل، استمتع كثيرًا بحكاياته في البرِّيَّة، صيده للحيوانات، وقتله للوحوش، وعلم أيضًا ســـبب ذهابـــه للحانة في أوَّل كلِّ أسبوعٍ، وأدرك أَنَّ هذا الرَّجـــل يحمـــل حبًـــا جمًـــا لـــــ(هوجو) برغم ما رآه مِنْ أهلها.

بينما جَرَعَ (أركان) منه الحياة الطَّبيعيَّة، أَنْ تعيش مع بشرٍ يوميًا، ولمدةٍ طويلةٍ، علمه، الاهتمام بالغير، والحديث الطَّويل، والنَّوم على سعادةٍ، علمه تشارك الأحلام، والصِّعاب، وعندما كان يراه ينضج ويكبر، كان يشعر بأنَّه ولده، مِنْ صلبه.

لقد تشاركا كلَّ شيءٍ، حتَّى تلك الرَّغبة المأسورة داخلهما، بـأَنْ يحـررا (هوجو) مِنْ قيودها.

(فأركان) لَمْ يترك المدينة قديمًا حذوًا وراء تلك اللَّحظة الَّتي سَيُثبتُ فيهـا خيره، و(توماس) سار على نفس النَّهج، كان مِنَ الممكن أَنْ يهربا بعيدًا، أَنْ يتركا كلَّ شيءٍ خلفهما، ولكنَّهما بقيا، والتزما بعهد الحبِّ لتلـك الأرض ومَنْ عليها، ومَنْ كان عليها.

في هذا اليوم عاد إليه (أركان) حاملًا معه همًا جديدًا، بعد عدَّة أعـوامٍ مِنَ السَّعادة والسَّلام، مقالٌ لـ(صديق) يحمل كـذبًا وافتـراءً، فأخـذ الصَّحيفة، وانغمس في الكلمات، شعر بضيقٍ في بـادي الأمـر، وبادلـه (أركان) ذات الشُّعور، فقال منفضًا أثر التُّراب عن صدره:

– إنَّه كاذبٌ!... إنَّها مقالةٌ كاذبةٌ!

فأومأ (أركان) برأسه بنعم، وقال:

– ماذا تودُّ أَنْ تفعل؟ هل نذهب لمحاسبته؟ بعد تلك الأعوام لا أعتقد أَنَّ هناك مَنْ يتذكرنا.

فقال توماس:

– ولا حتَّى الَّذين استسلموا؟

فاستطرد كلماته قائلًا:

- لا، الرِّجال في الحانة يكرهون (جيكل بويز) ويودُّون لو يقتلوهم، وأعتقد أَنَّ تلك المحنة الَّتي خاضوها في الأعوام الأخيرة ساعدتهم على تناسينا.

فأخذ يفكِّر (توماس) في حلٍّ ما، فسريعًا ما ربت (أركان) على كتفه قائلًا:

- أنا عندي خطَّة.

فقال (توماس):

- وأنا لديَّ أخرى.

وتابع الأخير:

- تلك الخطَّة كبيرةٌ، قد تحرِّر (هوجو) مِنْ قبضة هؤلاء.

جلس على الأرض وأخذ يحبك قصَّته، وبعد لحظاتٍ مِنْ تعجُّب (أركان) لفعله، قال:

- لن نقتل (صدي) فصديق هو الحل.

قال حزينًا:

- ولكنَّنا اثنين فقط ولن نستطيع مجابهة مئة رجلٍ، نستطيع مجابهة عشرين فقط.

فضحك (أركان) من قلبه، وقال:

- تلك النُّقطة عندي، أعرف رجلًا يملك الكثير مِنَ الرِّجال.

فقال (توماس):

- مَنْ؟

فقال (أركان) ممتعضًا:

– ستراه بعينيك.

فتحمس الصَّغير مثلما كان صغيرًا، وقال مستذكرًا:

– ماذا كانت خطَّتك؟

فقال (أركان):

– أن ندخل المدينة، ونهزم كلَّ مَنْ نقابله.

فضحك (توماس) بطيب خاطرٍ، فتبعه (أركان) على ذات الوتيرة.

* * *

(بيلي ذا كيد) الحقيقيُّ، هو مسلَّحٌ أمريكيٌّ خارجٌ عَنِ القانون، مِنْ مواليد (23 نوفمبر) (عام 1859م).

شارك في (حرب القطيع) في مقاطعة (لينكون) (عام 1978م)، وقد اشتهر أيضًا بنسبة قتله العاليَة حيث (قتل 21 شخصًا)، بمعدل (جريمة قتلٍ واحدةٍ) في كلِّ عامٍ مِنْ حياته، وتوفِّيَ بعمر (الاثنين والعشـــرين) في (14 يوليـــو 1881م).

* * *

الفصل الحادي عشر
بيلي ذا كيد

منذ عدَّة سنواتٍ.

ثلاث طلقات كنَّ كافياتٍ لقتل الحارس ومَنْ معه مِنْ عـــاملين في دار الأيتام، ومع صوتهنَّ تحرك الصِّبيَّة مِنْ أسرتهم خوفًا، وريبةً مِنَ الخطر المحدق بهم، والَّذي لَمْ يطرق أبوابًا، أو يعطي خبرًا لقدومه، اختبأ عددٌ منهم تحت الأسرة، بينما أمسك عددٌ آخر منهم بمناشف ذات عصيٍ خشبيَّةٍ، وعندما استعدوا خرج صوت صفيرٍ مرعبٍ مِنَ الممرِّ خارج غرفة المبيت.

كان صوتًا باردًا كالثَّلج، ومعه ارتفع الخوف وعلى، اقترب الصَّـــوت مِنَ الباب، وطرقت يداه بقوةٍ عليه، فاقشعرت أبدان الصِّغار رعبًا، وبعـــد لحظاتٍ أطلق الرَّجل عدَّة طلقاتٍ عَنْ قربٍ، لمَّا أسفر عن سقوط الباب في الدَّاخل، وعندها ظهر رجلٌ بدا عليه أنَّه مرَّ بالستِّين منذ شهورٍ، كان يرتدي عباءةً سوداء تصل إلى أسفل قدمه، مرتديًا قبَّعةً ســـوداء تشـــبه قباعـــات (الشرفاء) في القرى، وكان وجهه دميمًا تملأه التَّجاعيد، وتظهر عينيه بردًا جليًا، صوب مسدَّسه صوب الفتية في كلِّ مكانٍ، وقال:

– مرحبًا، مرحبًا، مرحبًا.

فخرجت همهمات خوفٍ مِنْ أفواه الصِّبيَّة الصِّغار، فقال ضاحكًا:

– يا لكم مِنْ جبناءٍ! ألن يهاجمني أحدٌ؟

أشعل سيجارةً، وأخذ ينفث دخانها في الهواء بعجرفةٍ جليةٍ، وقال بعد أَنْ ملَّ الانتظار:

– لا يبدو هذا.

وتابع:

- اجمعوا حاجياتكم وسيروا خلفي، ومَنْ سيتأخَّر عَنْ الرَّكب سأقتله، منذ الآن أنتم رجاليٌّ وأنا قائدكم الأكبر، وتلك أوَّل مهمَّةٍ انهبوا كلَّ شيءٍ هنا، ضموا لكم ما كنتم تتمنوه كثيرًا، وهيا بنا لنسطوا على العالم.

حدث ذلك منذ عدَّة سنواتٍ عندما انتشر الخبر في القرى المجاورة بأَنَّ هناك رجلًا ستينيًا اقتحم وحده مبنى دار الأيتام، ولكنَّه لَمْ يسرق شيئًا ماديًا فقط، بل قام بسرقة الأولاد أيضًا! ذلك هو (بيلي ذا كيد).

* * *

كانوا يصارعون مرتزقةً، وليسوا بشرًا، تلك السَّنوات المنصرمة مِنَ التَّدريب والوحدة لَمْ تجعلهما قويين بحقٍ، فعشرون صبيًا استطاعوا تكبيلهما وأخذهما معهم إلى المخبأ، دخلوا بهم إلى ردهة المخبأ، والَّذي كان عبارةً عَنْ حظيرةٍ قديمةٍ، تقَسَّم إلى غرفٍ للأحصنة، عوضًا عن أنَّها الآن أصبحت غرفًا للصِّبية الأقزام، جثوا على ركبهم إحترامًا لحضور العجوز عندما وقف في مكانه، وبعد لحظاتٍ مَنْ متابعة الشَّخصين، أدرك أنَّه يعرف أحدهما، فقال:

- اقتلوهما.

صاح (أركان) ومِنْ بعده (توماس) عندما وجِّهت لهم الأسلحة، فقال (بيلي):

- اقتلوا الصَّغير.

فصرخ (أركان) مجددًا، فعاد (بيلي):

– حسنًا... قد أبدعتم يا شباب، تستحقون الطَّعام بعد يومٍ ذي مسغبةٍ.

تحرَّك مِنْ مكانه قائلًا بهدوءٍ:

– ولكِنْ.

رفع سبابته في الهواء، وقال:

– هناك أمرٌ يجب أَنْ تتعلموه.

ضرب أحد الصِّبيَّة القريبين منه على وجهه، وصاح غاضبًا فيهم:

– يجب أَنْ تُكمِيموا أفواه رهائنكم!

– فكوا وثاقهما.

وعاد إلى كرسيَّه في غرورٍ، وبينما كان يحاول (أركان) الوقوف قال:

– ابني، لقد كبرت كثيرًا منذ آخر لقاءٍ.

نظر إلى (توماس) وقال:

– ومَنْ هذا؟

أخذ يتفحصه بعيون الصَّقر، وقال مستدركًا:

– هل هذا ابنك؟ لِمَ لَمْ تقل لي أنَّك أنجبت طفلًا في آخر لقاءٍ؟

بعدها صاح غاضبًا:

– اقتلوهما!

فتحرَّك الرَّجلان مِنْ موضعهما تأهبًا، فقال (بيلي) ضاحكًا:

– لا، أنا أمزح فقط.

وأخذ يقهقه في الفضاء كالنَّورس، وبعد ثوانٍ عاد إلى رزانته المعروفة، وقال:

– لقد فرحت بهذا الخبر كثيرًا، أكثر مِنْ فرحتيَّ بخبر وفاة (ميليك) قديمًا.

فاهتز الشَّابُّ، فلاحظه (بيلي) بدقةٍ، وقال:

– هل أنت ابنه؟

قال بينما كان ينهي بيده في الهواء:

– لا، لا أعتقد ذلك، هل أنت حفيده؟

فنطق (توماس) بصوتٍ مبحوحٍ فيه شيءٌ مِنَ الخشية بنعم، فقال (بيلي):

– نعم، عرفت ذلك، مسدَّسك ذو التُّراث المكسيكيِّ، كان يحمله هذا المغفَّل.

فاشتدَّ غضب (توماس) وجلى للعيان، فقال (بيلي) ساخرًا عندما لاحظ ذلك:

– أوه، هل تحبُّ جدَّك؟ ذلك الثَّرثار الكاذب؟

فقال (توماس) محافظًا على ثبوته لأكبر درجةٍ ممكنةٍ:

– لا تتحدَّث عنه بهذه الطَّريقة، مِنْ فضلك لقد مات وانتهى.

فحنى (بيلي) رقبته لليمين محاولًا إدراك كلامه، وقال:

– إذًا أنت ترى ألَّا يحقُّ ليَّ ذكر اسمه؟ ذلك الوغد الَّذي زور وفاتي ليعيش بطلًا طوال حياته؟ ذلك الجبَان الَّذي استسلم لي سريعًا؟ الَّذي جعل (أركان) يعيش منبوذًا طوال حياته؟

- إذا كان يغضبك هذا فكيف ستشعر عندما تعلم بأَنَّ تلك السَّترة السَّوداء، وهذه القبَّعة ملكٌ له؟ لقد أخذتهم منه في آخر لقاءٍ عنوةً.

فصاح (توماس) غاضبًا:

- اصمت!

فسريعًا ما صوب الصِّبيَّة أسلحتهم تجاه الرَّجلان، فقال (أركان) برفقٍ محاولًا وزن الكفَّة:

- مهلًا يا (أرهف).

فصاح (بيلي) غاضبًا بعدما وقف في مكانه مِنْ شدَّة الغضب:

- يا حقيرٌ!... قلت لك مئات المرَّات بألَّا تناديني باسمي أمام العوَام!

وعلى نفس الوتيرة:

- سأقتلك ها هنا!

رماه بسكينٍ مرت بجانب رأسه مباشرةً، فبلع ريقه، وبسط كفَّيه أمامه يطلب الرَّحمة، فقال (توماس) بخبثٍ شديدٍ:

- أرهف!

فسريعًا ما لكزة (أركان) في ذراعه، فهدأ من وتيرة غيظه، وقال على مضضٍ:

- إنَّه اسمٌ جميلٌ.

أخرج (بيلي) سيجارةً من علبته المعدنيَّة، وأشعلها، وتحدث بينما كان ينفث الدُّخان:

– قال لي يومًا أحد أبناء رعاة البقر أَنَّ الأسم مِنَ (الرهف واللـــين) وأنا لست كذلك.

فقال أركان:

– نعم، جميعنا يعلم هذا.

عاد إلى كرسيَّه، وسريعًا ما عاد إلى رشده، أخذ ينظر إلى (أركـــان)، و(توماس) بدقَّةٍ وتفكيرٍ، وكان (أركان) يبادله نفـــس النَّظـــرات، ولكِـــنَّ (توماس) كان قد شرد في خيبة ظنِّه تجاه هذا السَّفَّاح العنيد.

منذ الصِّغر كانوا يعظمون مِنْ قوته، ودهاءه، وحضوره ذو الهيبة منذ أن كان شابًا، ولكنه أدرك الآن أن جده قام بتزوير كل ذلك، على غرار... " تخيل أنَّني قضيت على كلِّ هذا!"

عاد من شروده عندما سمع صوت (بيلي) وهو يقول:

– ماذا هناك يا (أركان)؟ ماذا تريد؟

فتلعثم (أركان) لبعض الوقت، وقال:

– نريد مساعدتك.

فقال (بيلي) ساخرًا:

– الآن تريد مساعدة؟ ألست صاحب مقولة «أنا أكرهك يا هـــذا، أبغضك، وأبغض ماضيك، أبغض نسبك، وأود لو أقبض بفكـــيَّ على فؤادك؟

فنظر (توماس) إلى (أركان)، عندما تأكدت شكوكه، فقال (أركان):

- نعم ومازلت، ولَكِنْ البغض قد وصل إلى أقلِّ درجةٍ ممكنةٍ، بفضل هذا الصَّبيِّ.

فتحركت العيون تجاه (توماس)، فاهتز جسده توترًا، فقال (بيلي) بعد أن أشار بسبابته تجاهه:

- بفضل هذا؟

وأردف:

- رقَّ قلبك كثيرًا يا بنيَّ، أنا لا أتشرف بمثلك.
- أين حدَّتك؟ أين نظراتك القويَّة والمخيفة؟ أين ما ورثته عني؟

فقال (أركان) حانقًا:

- تغير كلُّ شيءٍ، فقد تحقق العدل في (هوجو) منذ عدة سنواتٍ.

فنهى (بيلي) بكفه في الهواء قائلًا:

- نعم، لقد علمت ذلك، كيف تقبل أَنْ تضع يدك في يد حفيد الرَّجل الَّذي آذى والدك، وآذاك؟
- كما قبلت العيش مواكبًا لحقيقة أنَّني ابنك،كما قبلت العيش مع إسمك، وأنت السَّبب الأول في أذيتي.

فظهرت أسنان العجوز امتعاضًا، وعندها تدخل (توماس) قائلًا بنبرته الباردة المعتادة:

- لِمَّ لَمْ تعد إلى القرية؟ لتزيح عنك غضبك؟

فضحك (بيلي) مستهزئًا، وقال موجهًا حديثه (لأركان):

- أبهذه الطَّريقة؟

فقال (أركان) مبتسمًا:

- نعم، بهذه الطَّريقة.

فتابع (بيلي) مبتسمًا ابتسامة الفطنة بعد الإمساك بفخٍ ما:

- حسنًا... ألم تعلم أنَّه لا يجب عليك توجيه الأسئلة للغرباء عَنْ دون الحق والحاجة؟ مِنَ الواضح أنَّك لم تتعلَّم، على كلِّ حالٍ سأجيبك.
- لَمْ أعد للقرية لأنَّني لَمْ أجد هدفًا ماديًا لعودتي، ماذا سيحدث بعد عودتي؟ سأقتل (ميليك)؟ سأحارب رجال العمدة؟ سأقتل النَّاس؟ سأموت؟ أدركت حينها أَنَّ العودة ليست مفيدةً، وإنَّما الإفادة تكمن في السَّطو على القرى الأخرى، الإفادة الأعظم في التَّغيير.
- تلك القرية الباليَّة، كانت ستنتهي، وحكمها، أو البقاء فيها لم يكن أبدًا في نيتي، وما كان يربطني بها هذا الطِّفل بجانبك.

فقال أركان:

- نحن نحتاج مساعدتك في العودة إلى القرية، نحتاج عتادك وسلاحك، نحتاج لقدراتك.

فضحك (بيلي) مِنْ قلبه، وقال:

- لمصلحة مَنْ؟ لمصلحة هذا الصَّغير؟ حفيد (ميليك)؟

فقال توماس:

- لا، ليس لمصلحتي، بل لك أيضًا، يمكنك أن تعيد بناء كل ما خسرته، سمعتك تلك الَّتي ساقتك إلى الهرب والتَّرحال، يمكنك أن تهدمها وتترك أثرًا آخرَ في القلوب هناك، ستنتقل سمعتك بين (بيلي

ذا كيد) الوحش إلى (بيلي ذا كيد) المنقذ العظِيم، ستصير أيقونة للنَّاس هناك وستغير ذلك كله.

التزموا جميعًا بالصَّمت، عندما أدركوا حجم ما قاله ذلك الفـــتى، ولَكِـــنَّ (بيلي) لم يكن أبدًا يحلم بذلك، فرد ساخرًا:

– ما مصلحتي مِنْ ذلك كله؟

فسريعًا ما عضَّ توماس شفقته السُّفليَّة غضبًا، فقال أركان:

– يمكنك بعدها أن تكون العمدة، كبرت على التَّرحال، وتحتاج لأن ترتاح في مكانةٍ مناسبةٍ.

أصاب الغضب توماس في باديء الأمر، فكيف لمجرمٍ كبيرٍ مثله بأَنْ يصـــير عمدة المدينة، ولكنَّه سريعًا ما استسلم لثقته في أركان، ولأنَّه أعلم به منه.

فقال بيلي بعد أن لمعت عيناه شوقًا:

– حسنًا... نظرًا لحالكما ولأنَّ ما قاله أركان جذبنيَّ، أنتما مِنْ رجاليَّ الآن.

فابتسم أركان وقال:

– ونحن نمتلك الخطَّة المناسبة.

فأشار لهما بيلي ببدء الحديث عنها، بينما كان كله آذانٌ صاغيةٌ.

* * *

لعبت الصِّحافة دوراً مهمًا في الغرب الأمريكيِّ القديم، حيث كانت تساعد الشُّرطة الفيدرالية «أحيانًا» على تضيق الخناق على المجرمين، فقد أسهمت مقالة المحرر (جون إدواردسون) في صحيفة (كانساس سيتي تايمز) في (السادس من إبريل في عام 1882م) في إلحاق الهزيمة بعصابة (جيسي جيمس) أثناء محاولتهم لنهب قطار بضائع.

كما ساهمت في شهرة (بيلي ذا كيد) كأحد أشهر المجرمن حينئذٍ، وساعدت على تضخيم شهرة (بفالو بيل) الضَّابط الأشهر في هذا العصر.

* * *

الفصل الثاني عشر
صديق هو الحل

نجحوا في التَّسلل إلى المدينة بعد تدرج طال مِنْ قمة الجبل الشَّماليِّ وحتَّى الأرض، كان (توماس)، ومعه اثنين مِنْ رجال (بيلي ذا كيد)، واللذان أظهرا قدرةً عجيبةً في السَّير وسط الأشجار، والصُّخور، والحيوانات، وهذا الأمر الَّذي أعطى بدوره ثقةً كبيرةً (لتوماس) في إتمام مهمته سالمًا، بدون أَنْ يصاب بخدشٍ.

وقف على أوَّل صخرةٍ قابلته، أخذ ينظر إلى أثار المدينة الفاضلة، مدينة (العمار) أخذ يتذكر طفولته، وأماكن البيوت القديمة، ولكنَّه سريعًا ما هبط من فوق الصَّخرة، عندما لَمْ يجد أيَّ سبيلٍ للين في قلبه، تحرَّك في الأزقة، والشَّوارع، ومِنْ خلفه كان الصَّبيان، وبعد سيرٍ طويلٍ في الظَّلام وصلا بكلِّ أمانٍ إلى بيت (صديق).

أصابهم الخزي في بادئ الأمر لأنَّهم كانوا يعتقدون بوجود حرسٍ في كلِّ مكانٍ، ولكنَّهم تأكدوا مِن أَنَّ خصمهم ارتاح حدَّ الرَّخاء، فتح أحد الصِّبيَّة النَّافذة مِنَ الخارج، ولج (توماس) بمفرده إلى البيت، وفي الدَّاخل، وعندما هبط، أدرك بمجرَّد نظراتٍ بسيطة بأنَّه قد هبط في مكتبه، ولحسن الحظِّ كان في الغرفة نائمًا على أريكته في فرط تعبه مِنَ القراءة، والكتابة.

نظر له بابتسامةٍ كارهةٍ، وود لو يقتله، ولكنَّه على درايةٍ بأنَّهم في حاجةٍ إليه، فاقترب منه في هدوءٍ، أشهر سلاحه، ووضعه على رقبته، فاستيقظ الجبان مِنْ نومه سريعًا، عندما شعر فقط بريح أحدهم بجانبه، وكيف لا؟ وهو الَّذي يمتلك أكبر عددٍ مِنَ الكارهين في الكون كله، ذلك المتلوِّن الجبان، حاول الصُّراخ، ولكِنْ سريعًا ما لكزة (توماس) بالسِّكين، فالتزم الصَّمت رُغمًا عنه، وقال بصوتٍ خفيضٍ وتائهٍ:

– مَنْ أنت؟ ولِمَ أنت هنا؟

فابتسم (توماس)، وقال:

– أنا (توماس الشريف).

فابتلع ريقه في ريبةٍ، وأخذ العرق يتصبَّب مِنْ مسامه كالغيث، وقال:

– أهلًا بابن (الشريف)... أهلًا.

فضحك ابن (الشريف) ضحكةً نكراءً، وقال:

– لا أهلًا هنا، ولا سهلًا.

قال بنبرةٍ غاضبةٍ:

– جئت لأنتقم لمقالتك اللعينة تلك.

فصاح الأقرع خائفًا، فهدَّده (توماس) بوغزة سكينٍ، فقال ذو الأربعة عيونٍ بصوتٍ خفيضٍ مترددٍ:

– أرجوك لا! أيُّ شيءٍ إلَّا الموت! خذ كلَّ ما تريده، واتركني حيًا.

– أنا هنا، توماس ابن الشريف، ولست لصًا ابن لص.

ضيَّق الخناق عليه أكثر فأكثر، فقال صديق:

– سامحني.

واستدرك قائلًا:

– أنت تعلم طبيعة عملي وتعلم خوفي، قد كنت أحب والدك ولكنَّك تعلم أنَّهم محتلون، ولا رحمة في قلوبهم، سيقتلوني! سيفتكون بي.

– حسنًا، ونحن أيضًا نستطيع أَنْ نفتك بك.

– نحن؟!

- (بيلي ذا كيد) مازال حيًا، وأنت تعلم ذلك جيدًا.

فقاطعه صارخًا:

- بيلي ذا كيد!

فقال توماس ضاحكًا:

- تخيل أَنَّ كلَّ أعدائك على الأبواب، يملكون عتادًا كبيرًا وسيجتاح المدينة، ولأنَّني أعلم طبيعة مهنتك جئتك أولًا، لأعرض عليك عرضًا.

فردَّ على سؤاله:

- ستُصدِرُ غدًا مقالًا مختلفًا، تضيق له جوانح (جيكل بويز) فيقررون إعدامك أمام العامَّة في السَّاحة، وهنا سنتدخل برجالنا.

فقال متفاجئًا وخائفًا:

- ستدعوهم يقتلونني! أنا أعلم ذلك.
- إذًا لماذا لَمْ أقتلك الآن عندما كنت نائمًا؟

أبعد سكينه عندما لاحظ شروع (صديق) في التفكير في الأمر، فضحك ساخرًا، قال:

- لقد وصلنا إليك بسهولةٍ، وقد نصل إليك في أيِّ وقتٍ، اخترجانبًا يا (صديق) فيوم العدل قادمٌ، وسينتصر أصحاب الحقِّ شئت أم أبيت، اخترنا علَّك تكفر عَنْ أخطائك، وتذكر هذا جيدًا (بيلي ذا كيد) و(أركان)، وحتَّى أنا سنكون هنا إِنْ لَمْ تنفذ الخطَّة.

- هل ستنقذوني قبل الإعدام؟
- نعم.
- هل ستقتلونني بعد الحرب؟
- هذا يتوقف على تعاونك.

وأشار له بيده وداعًا.

* * *

وبالفعل، وفي اليوم التَّالي، أمسك الثَّلاثة رجالٍ بثلاث نسخٍ مِنَ الصَّحيفة المحليَّة لمدينة (العمار)، وكان مكتوبٌ فيها ذات المقال...

" قد يأس قومٌ مِنْ قومٍ ارتأوا فيهم الصَّلاح، وإذ هم بمنحدرٍ قاسٍ."

سأحكي لكم اليوم قصةً معناها ملموسٌ، ولكنَّه ليس واضحًا، وعليك أَنْ تفك رموزه لتجد الطَّريق المستقيم، (تايزاي) تعني الخطيئة باللُّغة اليابانية، وهي لغةٌ صعبةٌ وغير مفهومةٍ، ولكنَّني قد اطَّلعت على الكلمة في كتابٍ مَا منذ أيامٍ، تتحدث قصَّتي عَنْ جزيرةٍ نائيةٍ، كانت موطنٌ للوحوشِ الضَّارية، حيث كانوا يعيثون فيها فسادًا وفتكًا ببعضهم البعض، وفي يومٍ مِنَ الأيام قدِم بحارةٌ، ومعهم قومهم إلى تلك الجزيرة عن طريق الصِّدفة، والتِّيه لأسابيعٍ، وأسابيعٍ في المحيط، وكان مِنْ ضمنهم رجلٌ خيِّرٌ، عريض المنكبين، قويُّ البنيان، ويظهر عليه أنَّه قائدهم الَّذي لا عدول عَنْ أوامره.

أحب هذا الرَّجل الجزيرة، ورغب في استوطانها، وجعلها ملاذًا أمنًا مِنْ بطش المحيط وترحاله، وسريعًا ما أمر رجاله، وشرعوا بتنفيذ أوامره، والَّتي كانت تنص على تنظيف الجزيرة، ومحو براثن الشُّرور فيها، وبالفعل، وفي

خلال أسابيعٍ، استطاع الرِّجال تكوين أرضٍ خصبةٍ جاهزةً لبناء مستقبلٍ واعدٍ.

وبمرور الوقت نجح الرَّجل وقومه في إنشاء وطنٍ قويٍّ، منظمٍ، وجميلٍ، مشبعًا بالودِّ، والمحبة والتَّعاون، واستمرَّ هذا الحال لأعوامٍ، وأعوامٍ، وكان ينبض في قلب كلِّ جيلٍ جديدٍ (أسوما)، الجذر الرَّاسخ والشَّجرة العظيمة .

وفي يومٍ مِنَ الأيام قدِمت مجموعةٌ مِنَ القراصنة إلى الجزيرة، ورغبوا بشرورٍ امتلاك هذه الأرض، وما عليها مِنْ خير فعله (أسوما)، وأهل (ظلِّ النَّار)، كان للقراصنة قائدًا يدعى (تايزاي)، وكان دميم الوجه، قويَّ البنيان، ذو قلبٍ كالحجر، أو أشدُّ صلابةً، وكان له رجالٌ يتبعونه خوفًا وخشيةً، وسرعان ما اشتعلت الحرب، ونجح القراصنة في امتلاك الجزيرة، وما عليها، وبالتَّأكيد كان إعدام (أسوما) العجوز أمام مرأى النَّاس سوطًا قويًا، وصدعًا لا يندمل أبدًا، حيث كانت كلمته الأخيرة...

" ليس للأمل مآل الفناء "

ومذ ذلك اليوم، سميت الجزيرة باسم (تايزاي)، ومرَّ الوقت، وأخذت أصوات السُّجناء سِمات التَّعلثم، فباتت محبوسةً في أعناقهم، كما ارتسم الخوف والمرض على وجوههم، فبعد قلع الشَّجرة العظيمة أصبح كلُّ شيءٍ باهتًا.

وفي يومٍ مِنَ الأيام، استطاع أحد الرِّجال الحكماء اقناع (تايزاي) باعطاء مساحةٍ صغيرةٍ لأهل الجزيرة ليعيشوا بسلامٍ بها، تاركين له معظم الجزيرة، فوافق الرَّجل سريعًا ولكنَّه اشترط أَنْ يقدِّم الأهل قربانًا بسيطًا، وهذا القربان كان عبارةٌ عَنْ أَنْ يقتل (تايزاي) شابًا مِنْ خيرة شباب القوم

كلَّ عامٍ، في قتالٍ يشاهده الجميع، وبالطَّبع لَمْ يكن قربانًا بهذه البساطة، بل كان خطَّةً تفترش على الواقع، وتمتدُّ لحدود المستقبل، كانت خطَّةً للقضاء على البذور.

وكان الاختيار الثَّالث عشر لأهل (ظلِّ النَّار) هو أخوهم (أودفارد)، وأمَّا أودفارد فكان عاشقًا (لأسوما)، حيث كان يوليه روحًا وقلبًا، ولكِنْ برغم هذا، كان أكثر الجبناء شجاعةً، فتربة الخوف لا تنبت أبطالًا.

وفي ليلة القربان، أتاه عجوزٌ عُرف بالحكمة، والموعظة الحسنة مِنْ بين رجال الجزيرة، ودارت بينهما محادثةٌ صغيرةٌ، كان الصَّغير شاردًا في فضاء العقل والخيبة، ينظر مِنْ شرفته تجاه المحيط، فدخل العجوز إلى الغرفة، وربَّت على كتفه، وقال:

- أتعلم لِمَّ اختاروك؟ لأنَّهم رأوا فيك الأمل لمستقبلٍ أفضل، أعلم أنَّه قدرٌ صعبٌ، ولكنَّه قدرك على كلِّ حالٍ، ولا تأتى المعارك إلا لأقوى الجنود.

"اعلم أَنَّ الخوف يخدشك هنا"

وأشار إلى قلبه، وتابع:

- ستواجه غدًا وحشًا لا يعرف الرَّحمة، فاعلم شيئًا، للأشياء حياتها الخاصة بها، عليك أَنْ توقظ روحها، تلك هي المسألة، والخوف لا يتعدى هذا المنظور، والشَّجاعة كذلك، قد يهَول لك عقلك، وقد يهَون تلك هي المسألة، فكف عن النَّظر إلى المحيط، وانظر إلى ما قد تقدمه بدوافع ذلك، ينتظرك مستقبلٌ مشرقٌ يا (أسوما، حارب الضَّعف وانتصر.

وفي اليوم التَّالي، نجح (أودفارد) في اخضاع القراصنة بعد أَنْ تخلَّص مِنْ زعيمهم على ضعفٍ، كمحاربٍ خاف، ووقع، واستفاق، واستطاع إعادة القوَّة إلى نفوس الضعفاء قائلاً:

– ليس للأمل مآل الفناء.

وهنا مربط الفرس يا سادة، ليس للأمل مآل الفناء حاربوا الخطيئة وانتصروا.

ابتسموا جميعًا مِنْ بلاغة هذا الرَّجل، وقال (بيلي):

– سننقذه، سنحتاجه في المدينة الجديدة.

فأومأ الرَّجلين بنعم.

لامسته حالةٌ جديدةٌ، وكأَنَّ روحًا طيِّبةٌ تحاوطه، فلأوَّل مرَّةٍ يقف على حدود الشَّرِّ وينتظر أَنْ يحاربه، لا أَنْ ينضمَّ له..

– لَمْ لَمْ تهرُّب يا أركان؟

– أقصد... لَمْ بقيت في مكانك كلَّ تلك السِّنين؟

فتفاجئا مِنْ سؤاله، وقال أركان:

– أنت تعلم السَّبب.

– حسنًا... أريدك أَنْ تخبرني إيَّاه مرَّةً أخرى.

تعجب مِنْ توقيت السُّؤال، فهم على بعد خطوةٍ مِنْ تحقيق أمرٍ مهمٍّ، وجديدٍ، ولكنَّه أجابه قائلًا:

– لأنَّني أحبُّ تلك الأرض، لأنني لا أملك إلا تلك الأرض.

– لَمْ لَمْ تكرههم؟ لقد آذوك.

– حاولت، ولكنَّني لَمْ أجد في الكره سبيلًا للرَّاحة.

فنظر بيلي إلى توماس، وقال:

– لقد لمسَّني حديثك عندما كنَّا في المخبأ، أنا لن أعود إلى (هوجـــو) للحكم، سأعود لها لأجل التَّكفير.

فابتسما مِنْ حديثه، وتطلعا للأمام.

مِنَ الممكن أَنْ نقول أَنَّ (بيلي ذا كيد) كان مجرمًا بفعل الجاهليَّـــة، أو بصورةٍ أكثر دقَّةٍ، بفعل (هوج الجاهليَّة)، كان مجرَّد ترسٍ في ماكينة الخطأ، وعندما وجد سبيلًا للتَّغيُّر، أو وصل له مناخ التَّغـــيير، عـــاد إلى طبيعتـــه الإنسانيَّة، ربَّما كان مجرمًا بفعل الزَّمن، وربَّما صار مجرمًا لأنَّه لَـــمْ يكـــن يرغب في أَنْ يعامل كفقير، أو يقبل الطَّبقيَّة، وربَّما كان مجرد أهوجٍ بنسائم الجنون وفرض القوَّة، على كلِّ حالٍ قد تغيَّر، وتلك هي الحقيقة الماثلة.

* * *

(دوك هوليداي) كان طبيب أسنانٍ في بداية حياته، ولكِنْ بعد معرفته لخبر إصابته بـــــ(السِّل) أصبح أحد أشرس رعاة البقـــر المجـــرمين في الغـــرب الأمريكيِّ، وفي (عام **1880**م) قام بإنقاذ أحد أكبر رجال القانون وقتئذ مِنَ الموت، والَّذي كان يدعى (إيرب وايت)، ممَّا أدَّى إلى خلق صداقةٍ قويَّةٍ بين طرفين بعيدين تمامًا، وفي (عام **1881**م) عين (هوليداي) مســـاعدًا لعائلـــة (إيرب)، والَّتي كانت تتكوَّن مِنْ ثلاثة إخوةٍ يحاربون الجريمة تحـــت لـــواء القانون.

* * *

الفصل الثالث عشر

نهاية

" هزمنا... لقد قتلوا كل الصِّبيَّة الأقزام، خدعنا (صديق)"

اشتعلت المدينة، وأخذت الأحصنة تركض فوق الجثَّث، وبرك الدِّماء، وبين طلقات الرَّصاص، لقد دُمرت مرةً أخرى، وعلى الضَّجيج مرةً أخرى.

"سقط (بيلي ذا كيد) سقط الزَّعيم على يد (هنري)، اهربوا يا رجال!"

كان يسير هاربًا، مترنحًا، ومتأوهًا مِنْ إصابته بعيارٍ ناريٍّ في جانبه الأيسر، وكانت الأصابة سيئةً، حيث أصابت مكانًا حيويًا، ولكِنْ برغم ذلك الألم، كان راضيًا تمامًا بقرب وفاته.

– احملوا جثَّة توماس خذوها معكم.

نعم، كان على درايةٍ بذلك أيضًا، أنَّه قد أصيب بطلق ناريٍّ في رأسه، فتفجرت جمجمته، وخرج ما بها أمام النَّاس، نعم، كانت نهايةٌ قبيحةً لا يستحقها، ذلك (الشريف) الواعد.

– هل أنت بخيرٍ أيُّها القائد أركان؟!

قالها له أحد الصِّبيَّة عندما رآه يصارع الموت، فقال له أركان بصوتٍ متقطعٍ مِنْ شدَّة الألم:

– اهرب، أنا سأموت.

وبالفعل هرب الفتى خوفًا مِنْ تلقيه أيَّة رصاصةٍ، أكمل السير تجاه الجبل الشَّماليِّ، لَمْ يكن هروبًا أكثر مِنْ أنَّه أراد الموت في المكان الَّذي احتضنه طوال حياته، وصل إلى مطلع الجبل، وأخذ يتحرَّك ببطءٍ واعوجاجٍ.

– إنَّهم قادمون مِنْ هنا! اهربوا جميعًا!

حاول الإسراع، ولكن كانت المحاولات بدون جدوى، فاستسلم لما قد يحدث له، فلم يعد يرى أيَّ أهميَّةٍ لحياته، أو حتَّى وصوله.

(أركان)، ذلك الرَّجل الَّذي حمل معه أطنانًا، وأطنانًا مِنَ الهـــم، والحـــزن، والوهن، وبرغم ذلك كان يستيقظ في كلِّ صباحٍ، يباشر أعماله، ويســـعى للنسيان، ولكِنْ اتضح أَنَّ الأمر برمته لَمْ يكن ذو جدوى.

وصل إلى منتصف الجبل، لم يكن يعلم كيف، ومتى، وبأيِّ وسيلةٍ، ولكِـــنْ يبدو أَنَّ القدر قد أراد ذلك.

"فقط نصف المسافة، ستفعلها يا (أركان)."

تذكر اللَّحظة الَّتي سبقت وفاة توماس الشريف.

– أسفٌ يا (أركان) يبدو أَنَّ النِّهاية هنا، يبدو أَنَّني قد قدتك لحتفك.

ولحظة وفاة (بيلي ذا كيد).

– هيا يا فتى لا تبكي، أتبكيني حقًا؟! لقد رقَّ قلبك كثيرًا، أتعلم أين يكمن سوء الأمر؟ إنَّه يكمن في أَنَّني لن أستطيع النَّظـــر إلى قـــبر (بيليك) قبل موتي، ذلك الوغد.

وصل إلى قمَّة الجبل، حيث بيته الصَّغير المتفحم.

"إنَّها نهايةٌ قبيحةٌ، أعتقد أَنَّني لا أستحقها، ولكِنْ هذا ما توقعته على كـــلِّ حالٍ، قد عانيت الأمرين في هذه الحياة، وكنت أعيش هنا متحينًا للحظـــة الَّتي سأغير فيها مِنْ قدري، ومِنْ قدر تلك المدينة، وقد جاءت الفرصة بجيئة ذلك الفتى (توماس). كنت أودُّ في قرارة نفسي أَنْ أكون خالدًا في قلـــوب الجميع، كنت أريد أَنْ أكون مويجةً في مياه راكدةٍ، يزداد أثرها أكثر فأكثر، ولا تتلاشى إلَّا عندما تصل إلى البرّين، فقط كنت أريد تصحيح الأوضاع! هل كان جلوسيَّ هنا الاختيار الصَّحيح؟ هل كان هذا المنظار هو الصَّحيح؟ المنظار الَّذي عشت أحدق مِنْ خلاله، هل كان المقام الأوَّل لديَّ يســـتحق

تلك الأولويَّة؟ هل تمكنت مِنْ أَنْ أزن الحياة بدقةٍ سديدةٍ؟ هل سيكون الأمر مجديًا الآن؟

لَمْ يعد الأمر مهمًا، لقد انتهى كل شيءٍ، وها أنا أسقط في المياه الدَّافقة."

سقط على ظهره، مدَّد ذراعيه على الجانبين، وأخذ ينظر إلى السَّماء الدَّاكنة، فشعر لولهةٍ أنَّه يحلق كالطَّير،كطيرٍ منهكٍ مهزومٍ.

* * *

فتابعه الرَّجل بنظرة امتنانٍ، فسريعًا ما رفع العرَّاف يده مشيرًا بِلا، وعندها أنزل الرَّجل عينيه أرضًا، وبعد دقائقٍ أخرى مِنَ الصَّمت:

– إنَّ قربانك مقبولٌ يا أركان.

وتابع:

– ذلك الغزال، إنَّك تريد أن تعرف مستقبلك، لك هذا يا ابن (بيلي ذا كيد).

صمت للحظاتٍ أخرى، وقال:

– ستكون نسرًا.

فقال (أركان) معترضًا:

– نسرًا؟ !

فأومأ الرَّجل برأسه بنعم، وقال:

– نعم... نسرًا.

* * *

– أتلك هي النبوءة؟ أهذا هو النَّسر؟

ابتسم بطيب خاطر وصاح ضاحكًا:

– لَمْ أكن أتوقَّع ذلك أبدًا.

فخرج صوتٌ مِنْ خلفه بدا عليه بأنَّه قريبٌ مِنْ قمَّة الجبل:

– ما الَّذي لَمْ تكن تتوقَّعه؟ الانتصار؟

ظهر صاحب الصَّوت المألوف لأركان، وكان بالطَّبع عائدًا لتوماس، فنظر إليه أركان بخوفٍ، وفجأةٍ، ومدَّ يده يتحسَّس إصابته، فوجد أنَّه سليمٌ تمامًا، فقال توماس الَّذي سريعًا ما أبدى قلقه:

– هل أنت بخيرٍ يا أركان؟

فانفرجت أساريره، وضحك بصوتٍ مرتفعٍ ولمدَّة دقائق، وكانت المرَّة الأولى.

– لقد نمت فقط، وليس إلَّا، أنا بخيرٍ يا صديقي، لا تقلق.

فسريعًا ما مدَّد الشريف الجديد جسده بجانب أركان، وقال:

– لقد انتهى كلُّ شيءٍ أخيرًا، واستسلم مَنْ تبقى منهم.

فسأل أركان بفضولٍ عندما تذَّكر أحدهم:

– أين بيلي وصديق؟

فقال توماس مبتسمًا:

– بيلي عند قبر جدِّيَّ، ولا أريد أَنْ أعرف ماذا سيفعل هناك، وأما (صديق) فذهب إلى بيته ليرتاح مِنْ ذا القلق الَّذي وضعناه فيه.

فابتسم أركان مِنَ الأخبار الجيدة، وقال:

– وماذا عن أهل القرية! هل ميزونا؟

– ميزونا؟ إنَّهم يتغنون بحاكمهم الجديد، تعال.

أخذه مِنْ ذراعه، وهبط به لأقرب نقطةٍ قد يسمع صوت أهل المدينة منها، فكانوا يقولون:

قد نبذ طويلًا، قد عاش آسيرًا، قد بات كثيرًا، في الحزن وحيدًا

أركان

قد عاد أخيرًا، باللطف سبيلًا، ورحمته كانت لنا جميعًا.

وتلت تلك الأغنية بعض الهتافات له، بأنَّه العمدة الجديد، وأَنَّ توماس سيكون الشريف الجديد، فوقف أمام النَّاس، وقال:

- لقد عوضني الخالق عما مررت به كله، ولكِنْ برغم ذلك أنا لا أستحق كلَّ هذا الثَّناء، بينما يستحقه كله توماس الشريف.

فأخذوا يهتفون بالاسمين في الأعالي، توماس وأركان العمدة، والشريف.

فقال أركان:

- هوجو، المدينة الفاضلة، هذا هو الاسم الجديد، سنحلق في السَّماء كما النُّسور، ولن ننتظر قدوم أحدهم ليعلِّمنا العالم، سنخرج وسنرى العالم، سنكبر ولن نكرر أخطاء الماضي، سيولد الأطفال، وسنحرص على تعليمهم ورعايتهم، ولن يكون هناك أركان جديدٌ، ولن تكون هناك عنصريَّةٌ جديدةٌ، إِنَّ الكأس الَّذي تجرَّعته قديمًا، وهذا المكان الَّذي أقف فوقه الآن، بينهما درسٌ تعلمته، ولأنِّي خضته، سأحرص على ألَّا يتذوق مرارته بعدي أحدٌ، افرحوا بما أنتم فيه، افرحوا وتمنوا وامضوا قُدُمًا آملين مسامحين، هنا وفي هذه اللحظة، أنهي قصة البأس، ودعونا نبدأ قصةً جديدةً سعيدةً.

الفصل الرابع عشر
لا نهاية

لامس نسيم الصَّباح جسده فشعر بالرِّياح، وطيب الحياة، هناءُهـــا، وجميلها، فابتسم عندما وجد أَنَّ الحياة قد تكون «أيضًا» هادئةً، عـــاد إلى مكتبه، نظَّم حامل الأقلام، وأماكن الأدوات المكتبيَّة، وأمسك قلمه، وشرع في كتابة مقالةٍ جديدةٍ.

" بعيدًا عَنْ أنَّهم علَّقوني في السَّاحة عاريًا أمام العيان قبل تنفيـــذ الحكـــم بساعاتٍ، وبعيدًا عن أنَّني كنت مفتاح الانتصار، هذا اليوم لن ينسى أبدًا! بل إنَّ تلك التَّجربة لن تنسى أبدًا! على شواطئ الحقيقة المنسيَّة، وفي عقول البشر المشتَّتة في أعماق هذا العالم، وبتبعيَّة تسليط الضَّوء على كلِّ ما هـــو مهمٌّ، كم شخصًا في العالم يعرف بنا في هذه اللَّحظة؟ كم شخصًا يفكِّـــر في هذه المدينة؟ ما نعيشه هنا، وما عشناه هنا تحت ضوء الشَّمس؟ أعتقـــد أَنَّ الأمر يحتاج لمركبٍ كما قال العمدة (أركان)، ولكِنْ هناك ما هو أهمُّ مِـــنَ العالم، عقولنا... هل عقولنا نحن الَّذين نخوض الأمر ستقف عند هذا الحدِّ؟ هل سنتذكَّر بعضنا البعض بعد مرور السَّاعات؟ هل تشابك أقدارنا فيمـــا شهدناه هنا سيغيِّر مِنْ مستقبلنا في شيءٍ؟ هنا، مرةً في فجر الزَّمان اختلـــف كلُّ شيءٍ، تشتَّتَ كلُّ شيءٍ، مرَّةً هنا اندثرت المفاهيم، ولكِنَّ الحقيقة الَّـــتي أُثبتت، أَنَّ الأمل هنا والظَّلام الحالك هنا أيضًا! في داخلنا، وفي الخارج أنت فقط المعنيُّ بالاختيار، المعنيُّ بحقيقة الإيمان، أَنَّ الغد فرصةٌ للتَّغيير، للتَّكفير، وتصحيح الأوضاع، أَنَّ الغد فرصةٌ للاستمرار"

ارتشف قليلًا مِنَ القهوة في صمتٍ تامٍّ بعد أَنْ أنهـــى مقالتـــه، وضـــعها في حقيبته، وغادر مكتبه متجهًا إلى مقرِّ الصَّحيفة.

* * *

اقتحم رجلٌ مصابٌ الحانة، فهرع الجميع ينظرون إلى طلّته، وأصـــابهم الخوف عندما عرفوا ماهيته، ولكنَّه لَمْ يعبأ لهم، ولا لنظراتهم حيث ذهب إلى الكراسيِّ الموضوعة أمام منضدة المشروبات في الحانة، وقال للعامل في قسوةٍ مصاحبةٍ لألمٍ عارمٍ:

– أحضر لي مشروبًا، ودعهم اليوم ينتصرون.

أكمل الجملة في نفسه:

– تلك الأرض ملكٌ لنا، لا تقبل الهزيمة.

* * *

تمت بحمد الله

مصادر

للتواصل مع الكاتب:

@instagram

22mahmoudgawish

التوقيع:

صُمم اللوجو بواسطة:

إسلام محي